قِصَّة يُوسُف عليه السَّلام[١]

قال مقاتل: ذكر الله تعالى يوسف في سبعةٍ وعشرين موضعاً. وقد ذكرنا أنَّ أسماء الأنبياء كلها أعجمية ولهذا لم تنصرف[٢].

وذكر الثعلبي وقال: اختلفوا فيه، فقال بعضهم: هو اسم عبري. وقال بعضهم: هو اسم عربي. قال: وسمعت أبا القاسم الحَبيبي يقول: سمعت أبي يقول: سمعت أبا الحسن الأقطع ـ وكان حكيماً ـ يقول وقد سئل عن يوسف: إنه من الأسف وهو الحزن، والأسيف العبد، وقد اجتمعا في يوسف، فلذلك سمي يوسف[٣].

قلت: لو كان حكيماً ما فسَّر أسامي الأنبياء بهذا. وقوله: هو من الأسف والعبد فليس كذلك، لأن أهل اللغة قد اتفقوا على أنه اسم أعجمي، ذكره ابن الجواليقي في «المعرب» وغيره[٤]، وأن يعقوب سماه به من صغره.

وقد جاءت أخبار في فضل يوسف، قال البخاري: حدثنا إسحاق بن إبراهيم بإسناده عن عبد الله بن عمر عن النبي ﷺ أنه قال: «الكَرِيمُ بنُ الكَرِيمِ بنِ الكَرِيمِ بن الكريم، يُوسفُ بنُ يَعقُوبَ بنِ إسحاق بنِ إبراهيمَ»، انفرد بإخراجه البخاري[٥].

وقال أحمد بإسناده عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «أُعطِيَ يُوسفُ شَطرَ الحُسنِ»[٦].

ذكر قصته

قال الله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾[يوسف: ٣] الآيات. وقال سعد بن

---

(١) انظر قصته في: المعارف ٤١، و«تاريخ الطبري» ١/ ٣٣٠، وتفسيره ١٥/ ٥٤٩ و١٦/ ١ فما بعدها، و«البدء والتاريخ» ١/ ٦٦، و«عرائس المجالس» ص ١٠٩، و«المنتظم» ١/ ٣١٠، والتبصرة ١/ ١٧٨، وزاد المسير ٤/ ١٨٠، وتفسير ابن كثير، و«البداية والنهاية» ١/ ٤٥٦.

(٢) انظر ذكر قصة آدم عليه السلام.

(٣) انظر «عرائس المجالس» ص ١١٠.

(٤) «المعرب» ص ٤٠٣.

(٥) أخرجه البخاري (٣٣٨٢).

(٦) أخرجه أحمد (١٤٠٥٠).

أبي وقاص: أنزل القرآن على عهد رسول الله ﷺ فتلاه عليهم زماناً فكأنهم ملُّوا، فقالوا: يا رسول الله، لو حدَّثتنا، فأنزل الله ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾[الزمر: ٢٣] فقالوا: لو قصصت علينا، فأنزل الله: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ فقالوا: لو وعظتنا، فأنزل الله: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾[الحديد: ١٦][(١)].

واختلف العلماء لم سُميت سورةُ يوسفَ أحسنَ القصص على أقوال:

أحدها: لأنه ليس في القرآن قصة تتضمن ما تتضمن، لأن فيها ذكر الأنبياء والصالحين والملائكة، والجن والإنس، والأنعام والطيور، وسيرَ الممالك والملوك، والعلماء والرجال، والنساء وحِيَلِهنَّ ومكرِهنَّ، وذكر التوحيد والفقه، والبكاء والفرح، والسجن والمسجونين، وتعبير الرؤيا وتدبير المعاش، وذكر المحب والمحبوب، والبعد واللقاء، والسياسة والمعاشرة وحسن المحاورة، والصبر على الأذى والعفو والكرم ونحو ذلك، فكانت أحسن القصص لما فيها من المعاني الجزيلة، والفوائد الجليلة، التي تصلح لمكارم الأخلاق، وذكر التلاقي بعد الفراق، قاله ابن عباس، وابن مسعود، وسعد بن أبي وقاص، وغيرهم.

والثاني: لامتداد الأوقات فيما بين مبتداها إلى منتهاها، واختلفوا فيه، قال ابن عباس: كان بين رؤيا يوسف ومصير إخوته إليه وأبيه سبعون سنة جرى فيها الغرائب.

وقال الحسن البصري: ثمانون سنة.

وقال مجاهد: أربعون سنة، وهو رواية عن ابن عباس وعليه أكثر المفسرين.

والثالث: لأن يوسف كان أحسن البشر، ونسبه أعرق الأنساب، ورؤياه أحسن الرؤيا، وعبارته أحسن التعبير، وبشارته أحسن البشرى، وحاله أحسن الأحوال، وبرهانه أحسن البراهين، وشاهده أحسن الشواهد، ومُلكه أحسن المُلك، ودعاؤه أحسن الأدعية، وتزويجه أحسن التزويج، وعصمته أحسن العِصَم، وعاقبته أحسن العواقب، قاله الربيع بن أنس.

وأحسن القصص بمعنى أعجب[(٢)].

---

(١) أخرجه الطبري في التفسير ١٥/ ٥٥٣، وانظر الدر المنثور ٤/ ٣.

(٢) انظر تفسير الثعلبي ٥/ ١٩٦-١٩٧، وعرائس المجالس ١١٠، وزاد المسير ٤/ ١٧٨.

وقد ذكرنا تزويج يعقوب براحيل أم يوسف[١].

وقال جدِّي في «التبصرة»: خرج يعقوب من الشام هارباً من أخيه عيصو إلى خاله لابان، فزوجه ابنته ليّا فولدت له روبيل ثم شمعون ولاوي ويشجب ويهوذا وزبالون، ثم توفيت فزوجه أختها راحيل، فولدت له يوسف وبنيامين، ومعناه: ابن الوجع لأنها ماتت في نفاسها منه، ووُلد له من غيرها أربعة أولاد، فجميع أولاد يعقوب اثنا عشر ولداً، وهم الأسباط[٢]. وقد ذكرناه في ترجمة يعقوب عليه السلام[٣].

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا﴾[يوسف: ٤] فإن قيل: فلم قال: رأيتهم لي ساجدين ولم يقل: رأيتها، وهي مؤنثة؟ فالجواب: أن الهاء والميم والياء والنون من كنايات ما يعقل، والسجود مما يعقل، فعبر عنها بكنايتها كقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ﴾[النمل: ١٨][٤].

ذكر رؤيته الكواكب

واختلفوا فيها على أقوال:

أحدها: أنها الشمس والقمر وزحل والمشتري والمريخ وعطارد والزهرة والفرقدان وسهيل والنسران، ذكره مقاتل في كتاب «المبتدأ» له.

وحكى أبو إسحاق الثعلبي عن السُّدِّي عن عبد الرحمن بن سابط عن جابر قال: أتى النبيَّ ﷺ رَجلٌ من اليهودِ يُقالُ له: بُستَان، فقال: يا محمد، أخبرني عن الكَواكبِ التي رَآها يُوسفُ سَاجدة له، ما أسماؤُهَا؟ فَسكتَ رسولُ اللهِ ﷺ ولم يُجبهُ بشيءٍ، فَنزلَ جِبريلُ عليه السَّلامُ فأخبَرهُ بِها وبِأسمَائِهَا، فقالَ له رسولُ اللهِ ﷺ: «هَل أنتَ مُؤمِنٌ إن أخبرتُكَ بأسمائِها»؟ قال: نعم، فقال رسولُ اللهِ ﷺ: «هي حُرثان والطَّارقُ والذيَّالُ

(١) انظر فصل في ذكر يعقوب عليه السلام.

(٢) «التبصرة» ١/ ١٧٨.

(٣) انظر فصل في ذكر أولاد يعقوب عليه السلام.

(٤) انظر تفسير الطبري ١٥/ ٥٥٦، وتفسير الثعلبي ٥/ ١٩٧، وزاد المسير ٤/ ١٨٠.

وذو الكتفين وقَابسُ ووثَّابُ وعمودانِ والمصبحُ والقيلو[١] والضَّرُوحُ والفَرْغُ والشَّمسُ والقَمرُ، نزلت من السَّماءِ فسَجَدتْ له، جاءني جبريلُ فأخبرَنِي بأسمائِها، فقال اليهودي: إي واللهِ إنَّها لأسماؤُها».

قلت: ولم يذكر أبو إسحاق الثعلبي ما في هذا الحديث، وقد ذكره جدِّي رحمه الله في «الموضوعات»، ثم قال جدِّي: هذا حديث لا يصحُّ عن رسول الله ﷺ، في إسناده الحكم بن ظهير، قال ابن معين: الحَكم ليس بشيء، وقال النسائي: متروك، وقال أبو حاتم بن حِبَّان: يروي الموضوعات عن الثقات، وقال البخاري: لا يُكتب حديثه البتة، وقال محمد بن طاهر: كان الحكم كذَّاباً، وقال جدي: إنما قصد واضعه شينَ الإسلام بمثل هذا[٢]. قلت: وليس في السماوات ما يُعرف من هذه النجوم إلا الطَّارق.

والثاني: أنه رأى كواكب مجهولة، قاله مجاهد، بدليل قوله: «أحد عشر كوكباً» منكَّرة.

والثالث: بنات نعش والجَدِي والسُّها والشِّعريين، قاله الربيع.

وقال ابن عباس: الشمس أبوه والقمر خالته، لأن أمَّه قد ماتت، والكواكب إخوته لأنهم كانوا أحد عشر كوكباً.

واختلفوا متى رأى هذه الكواكب على قولين:

أحدهما: أنَّه كان ابن اثنتي عشرة سنة، قاله مقاتل.

والثاني: سبع عشرة سنة، قاله مجاهد.

وحكى الثعلبي عن وهب بن منبه قال: كان يوسف قد رأى وهو ابن سبع سنين أنَّ إحدى عشرة عصاً طوالاً مركوزة في الأرض كهيئة الدائرة، وإذا عصا صغيرة وثَبت عليها فابتلعتها، فذكر ذلك لأبيه فقال له: إيَّاك أن تذكر هذا لإخوتك. ثم رأى الكواكب بعد اثنتي عشرة سنة فقصَّها على أبيه، فقال له: ﴿لَا نَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ

(١) كذا في النسختين (ب) و(ل)، والذي في المصادر: والفيلق، انظر تفسير الطبري ١٥/ ٥٥٥، والثعلبي ٥/ ١٩٧ـ١٩٨، وعرائس المجالس ١١٣، وتفسير ابن كثير ٤/ ٤٦٨، والبداية ١/ ٤٦١، وهو حديث ضعيف.

(٢) «الموضوعات» (٣٠٢).

كَيْدًا﴾[يوسف: ٥] أي: يبغونك الغوائل ويحتالون لهلاكك لأنهم يعلمون تأويلها فيحسدونك ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾[يوسف: ٥] ثم قال له يعقوب: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ أي: يختارك ويصطفيك ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ أي: تعبير الرؤيا، وسمي تأويلاً، لأنه يؤول أمره إلى ما رأى في منامه ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ يعني الأسباط ﴿كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ﴾ بالخُلَّة وغيرها، وإسحاق بالنجاة من الذبح[1] ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾[يوسف: ٦].

قال السُّدِّي: وبلغ إخوتَه حديث الرؤيا فقالوا: ما رضي أن يسجد له إخوته حتى سجد له أبوه؟! فحسدوه.

وقال مقاتل: لو حفظ وصية أبيه في قوله: ﴿لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ﴾ لما جرى عليه ما جرى، ولكن الإنسان حريص على ما مُنِعَ منه وخصوصاً الصبيان والنساء.

قال الله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ۝٧﴾[يوسف: ٧] أي: في خبره وخبر إخوته، وقد ذكرنا أسماءهم على وجه التفصيل، فنذكرها ها هنا على وجه الإجمال. قال مقاتل: أسماؤهم روبيل وهو أكبرهم، وشمعون، ولاوي، ويهوذا، وزبالون، ويسَّخر، وأمهم ليَّا بنت لابان، ولابان خال يعقوب. ووُلِد له من سُرِّيتين وهبتهما له ليَّا، اسم إحداهما زلفى، والأخرى بلهة أربعة نفر: دان ونفثالي وجاد[2] وأشر. ثم توفيت ليَّا فتزوج يعقوب أختها راحيل فولدت له يوسف وبنيامين.

و«الآيات»: العلامات، والمراد بالسائلين: اليهود، سألوا رسول الله ﷺ عن قصة يوسف، فأخبرهم بها كما في التوراة، فعجبوا وقالوا: من أخبرك بهذا؟ قال: «أخبرني به ربي».

وقال مقاتل: وكانوا أنبياء.

قلت: وقد وَهِمَ مقاتل لأنهم ارتكبوا الكبائر، وإنما قيل إنهم نُبِّؤوا بعدما دخلوا مصر وتابوا.

---

(١) تفسير الثعلبي / ١٩٨، والمصنف ينقل عنه تفسير الآيات فليرجع إليه، ولن أحيل عليه بعد هذا.

(٢) في (ل) و(ب): وباد.

واختلفوا في العُصبَة: فقال الزجاج: هي ما بين الواحد إلى العشرة، وقال غيره: ما بين الواحد إلى خمسة عشر، وقيل: ما بين العشرة إلى الأربعين.

﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[يوسف: ٨] بإيثار يوسف وبنيامين علينا ﴿ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ﴾ قال وهب: القائل لهذا شمعون، وقيل: روبيل، وقيل: دان ﴿أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾ أي: في أرضٍ أخرى ﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾ عن شغله بيوسف وأخيه ﴿وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ﴾[يوسف: ٩] أي: صلح لكم ما بينكم وبين أبيكم ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ﴾ وهو يهوذا، وكان ابن خالة يوسف وأحسنهم فيه رأياً ﴿لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ﴾ فإن قتله عظيم ﴿وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾ أي: في قعره وظلمته بحيث يغيب خبره و«الغيابة»: كل شيء غيَّب. و«الجُب»: البئر. وقال مقاتل: هذا الجب على ثلاثة فراسخ من منزل يعقوب بأرض الأردن. وبعضهم قال: بين مدين ومصر. وبعضهم قال: ببيت المقدس.

قوله: ﴿يَلْتَقِطْهُ﴾ أي: يأخذه، والسيَّارَة: من يمرُّ في الطريق، ﴿إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾[يوسف: ١٠] لتستريحوا منه، وقيل معناه: إن كنتم فاعلين ما أُشير به. وقيل للحسن: أيحسد المؤمن؟ قال: ما أنساك عن إخوة يوسف، وقيل أولاد يعقوب.

ثم اتفقوا على التفرقة بينه وبين ولده بضربٍ من الحيلة حسداً منهم فقالوا: ﴿يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ﴾[يوسف: ١١] بالحفظ والحياطة حتى نردَّه إليك ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾ [يوسف: ١٢].

فإن قيل: فكيف قالوا يلعب وهم أنبياء؟ فالجواب من وجهين:

أحدهما: أنهم لم يكونوا أنبياء حينئذٍ.

والثاني: أن اللعب بمعنى النزهة، وذلك جائز. على أنهم قد ارتكبوا من يوسف ما هو أعظم من اللعب، لما نذكر.

وقيل معنى (يرتع): يرعى غنمه. وقال مجاهد: قالوا ليوسف: أمَا تخرج معنا فنلعب ونتصيد؟ قال: بلى، قالوا: فاسأل أباك، فسأل فمَنَعه، فقال: يا أبة، قد أرى من إخوتي اللطفَ واللين، فأذِنَ له على كُرهٍ. ثم إنهم ألحُّوا على أبيهم فقال: ﴿إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ﴾[يوسف: ١٣] أي:

لا تشعرون.

فإن قيل: فلم خصَّ يعقوبُ الذئبَ دون سائر الوحوش؟ فالجواب من وجهين:

أحدهما: أن تلك الأرض كانت كثيرة الذئاب.

والثاني: لأن يعقوب رأى في منامه كأن الذئب شدَّ على يوسف وكان يحذره. وقال مقاتل: كان ذلك من باب معجزات يعقوب، فكأنه يقول: كأني بكم قد جئتم غداً وقلتم أكله الذئب. فإن قيل: فذكْره الذئب تلقينٌ لهم، وكانوا لا يدرون، فقد عرَّفهم العلَّة، قلنا: بل هو تنبيه على ما في نفوسهم وإعلام لهم بما قد عزموا عليه.

﴿قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ عشرة رجال ﴿إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ﴾ [يوسف: ١٤] أي: ضَعَفَةٌ عَجَزة مغبونون. وقال أبو عبيد: في الكلام محذوف وتقديره: لئن أكله الذئب الذي رأيته في منامك إنَّا إذن لخاسرون، فأرسله معهم.

ذكر خروجه معهم

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا﴾ أي: عزموا على ﴿أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ، وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ﴾ أي: ناديناه. فإن قيل: ما بعث الله نبياً إلا بعد الأربعين، فكيف قال: وأوحينا إليه؟ فالجواب: أنَّ الوحي عبارة عن الإلهام ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾[النحل: ٦٨] فألهمه الله لتصدُقنَّ رؤياك ولتخبرنَّ إخوتك بصنيعهم إذا دخلوا عليك وأنت ملك مصر ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾[يوسف: ١٥] ومعنى «لتنبِّئنَّهم» أي: لتخبرنهم في المستقبل، وهذا معنى قول ابن عباس. وقال مقاتل: معناه وهم لا يشعرون أنك يوسف، لما نذكر في آخر القصة.

وحكى السُّديُّ عن ابن عباس قال: لما خرج معهم يوسف أظهروا له الكرامة أولاً، فلما أصحروا أظهروا له ما في أنفسهم من العداوة، وجعلوا يضربونه، وكلما لجأ إلى واحدٍ ضربه، فكادوا يقتلونه، وجعل يصيح: يا أبتاه، لو ترى ما يَصنَعُ بابنكَ بنو الإماء لعزَّ عليك. ومعنى قوله: بنو الإماء لأن بعضهم كان من الأَمَتين اللتين وهبتهما ليًّا ليعقوب. فأخذه روبيل فضرب به إلى الأرض، ويوسف يبكي ويقول: يا أبة، ما أسرع ما نسوا عهدك وضيَّعوا وصيتك. فجثم روبيل على صدره ليذبحه فزجره يهوذا وقال:

أين المواثيق والعهود؟ فتركه وهو يصيح: يا أبة، لو رأيت ما أنا فيه لأحزنك وساءك. ثم أجْمعوا على أن يُلقوه في غيابة الجب، فلمَّا دلُّوه جعل يتعلق بجوانب البئر، فربطوا يديه ونزعوا قميصه، فقال: يا إخوتاه، رُدُّوا عليَّ قميصي أُواري به عورتي، فقال له روبيل، وكان عليه أشدَّ من الباقين: يا ابنَ راحيل، يا صاحب الأحلام، ادعُ الشمسَ والقمر والكواكبَ تخلصك. ثم دلُّوه في البئر، فلما بلغ نصفها ألقوه إرادة أن يموت، وكان في البئر ماءٌ فوقع فيه، ثم أوى إلى صخرة فقام عليها، وجعل يبكي، فنادوه فظنَّ أنها رحمة له، فأجابهم فأرادوا أن يرضخوه بصخرة فمنعهم يهوذا، وكان أحنَّ عليه منهم لأنه كان ابن خالته، وكان يأتيه بطعام ويتفقد أحواله. قال ابن عباس: وأمر الله الصخرة فارتفعت من الأرض ووقف عليها وهو عريان، وكان إبراهيم لما ألقي في النار جرَّدوه من ثيابه فجاءه جبريل بقميص من حرير الجنَّة فألبسه إيَّاه، فلمَّا توفي إبراهيم ورَّثه إسحاق، فلما مات إسحاق ورَّثه يعقوب، فلما شبَّ يوسف جعل يعقوبُ القميصَ في تعويذٍ وجعله في عنقه، فلما أُلقي في الجبِّ جاءه جبريل فأخرج القميص من التعويذ فألبسه إيَّاه. وأضاءَ له الجبُّ وعَذُبَ ماؤه، وأَنِسَ بجبريل، فلما أراد جبريل أن ينصرف قال له يوسف: إني أستوحش، فقال: إذا استوحشت فقل: يا صريخَ المستصرخين، ويا غوث المستغيثين، ويا مفرِّج كرب المحزونين، قد ترى مكاني وتعلم حالي ولا يخفى عليك شيء من أمري، فاجعل لي مما أنا فيه فرجاً ومخرجاً. ـ وفي رواية: يا قريباً غير بعيد، ويا شاهداً غير غائب ـ فلما قالها حفَّتِ الملائكة بالجبِّ، واستأنس. وقيل: إنه ما بات فيه بعدما دعا بهذا الدعاء[1]. وقال ابن عباس: أقام في الجب ثلاثة أيام وإخوته حول الجب يرعون أغنامهم، ويهوذا يحرسه منهم لئلا يقتلوه.

واختلفوا في مبلغ سنِّه حين ألقي في الجب على أقوال:

أحدها: أنه كان له اثنتا عشرة سنة، قاله مقاتل.

والثاني: سبع عشرة سنة، قاله مجاهد.

والثالث: ثمان عشرة سنة، قاله الربيع. والأول أظهر.

---

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ١١٥ـ١١٦.

وقال السُّدِّي: ذبحوا سخلة وجعلوا دمها على قميص يوسف ﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾﴾[يوسف: ١٦] وكان وقت العتمة، وإنما جاؤوا في الليل ليكونوا أجرأ على الكذب في الظلمة بخلاف الضوء ـ ولهذا قيل: لا تطلب الحاجةَ في الليل فإن الحياءَ في العين، ولا تعتذر في النهار من ذنب فتتلجلج في الاعتذار فلا تقدر على إتمام العذر ـ فلما سمع يعقوب أصواتهم فزع وقال: ما الذي بهم؟ وأين يوسف؟ ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ﴾ أي: يسابق بعضنا بعضاً ﴿وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا﴾ أي: عند ثيابنا ﴿فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾ أي: بمصدق ﴿وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾[يوسف: ١٧] لسوء ظنك بنا وتهمتك إيَّانا في يوسف، وهذا قميصه ملطَّخٌ بالدم، وأخرجوا القميص، فذلك قوله تعالى: ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ أي: هو كذب، وقيل: مكذوب لأنه لم يكن دم يوسف وإنما كان دمَ سخلةٍ. وقرأت عائشة: «بدم كَدِب» ـ بدال مهملة ـ أي: طري. فلما رأى يعقوب القميصَ صحيحاً قال: تالله ما رأيت ذئباً أحلم ولا أشفق من هذا، أكل ابني ولم يخرقْ قميصه، فعلم كذبهم، فقال: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ [يوسف: ١٨] أي: زيَّنتْ وحسنت ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ أي: فصبري صبر جميل[1]. وقال الحسن: الصبر الجميل الذي لا جزع فيه ولا شكوى ولا تعبيس وجهٍ ﴿وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾[يوسف: ١٨] من الكذب والبُهت.

قوله تعالى: ﴿وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ﴾ أي: رفقة مارة من قِبل مدين يريدون مصر فأخطؤوا الطريق فنزلوا قريباً من الجب، وكان بعيداً من العمران، وكان ماؤه ملحاً فعذب حين ألقي فيه يوسف، فأرسلوا رجلاً من العرب من أهل مدين يقال له: مالك بن دُعْر ليطلب لهم الماء، فذلك قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلُواْ وَارِدَهُمْ﴾ والوارد الذي يتقدم الرفقة إلى الماء ليهيء لهم الأرشِيَة والدلاء للبئر.

واختلفوا في اسم الوارد على أقوال:

أحدها: أنه مالك بن دُعْر من العرب. وقال الثعلبي: هو من ولد إبراهيم عليه السلام.

---

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ١١٧.

والثاني: أن اسمه عنقود، قاله مقاتل.

والثالث: مخلب بن رعويل، قاله وهب بن منبه.

﴿فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ﴾[يوسف: ١٩] أي: أرسلها، فتعلق يوسف بالحبل، فلما خرج إذا هو بغلام من أحسن الغلمان. قال الثعلبي: قال النبيُّ ﷺ: «أُعطيَ يُوسُف عليه السلام شَطْرَ الحُسْنِ، والنِّصفُ الآخرُ لسائرِ النَّاسِ»[(١)].

قال: وقال كعب الأحبار: كان يوسف حسنَ الوجه، جعد الشعر، ضخم العينين، مُستوي الخَلق، أبيض اللون، غليظ الساقين والساعدين والعضدين، خميص البطن، صغير السرة، وكان إذا تبسم رأيت النور في ضواحكه، وإذا تكلم رأيت في كلامه شعاع النور من ثناياه، وكان جبينه كضوء النهار، وكان يشبه آدم يوم خلقه الله ونفخ فيه من روحه قبل أن يصيبَ المعصية، وقيل: إنه ورث الجمال من جدته سارة وكانت قد أعطيت سُدس الحسن[(٢)].

قلت: وقد روي في حُسنه حديث: أنبأنا جدِّي رحمه الله قال: حدثنا محمد بن ناصر بإسناده عن جعفر بن الزبير عن القاسم عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن كَانتِ الحُبلى لَترى يُوسُفَ فَتَضعُ حَملَها». إلا أنه حديث لا يصحُّ، ذكره جدِّي في «الموضوعات» وقال: هذا حديث موضوع، وقد اجتمعت فيه آفات منها: القاسم وهو ابن عبد الرحمن وجعفر بن الزبير وأبو الفضل الأنصاري واسمه عباس، واتفق أحمد بن حنبل وشُعبة وابن معين والنسائي وغيرهم على أنهم كانوا كذابين وضَّاعين للأخبار[(٣)].

قال السُّدي: فلمَّا رآه الوارد دهش وتحيَّر وقال: ﴿يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ﴾ ومعناه: أن المستقي نادى رجلاً من أصحابه اسمه بشرى، كما تقول: يا زيد، وهو في موضع رفعٍ على النداء، قاله السُّدي ﴿وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً﴾[يوسف: ١٩] أي: أخفوه.

وقال مجاهد: أسره مالك بن دُعر وأصحابه التجار الذين هم معه من أهل المياه وقالوا: هو بضاعة استبضعناها، خيفة أن يطلبوا منهم الشركة فيه. وجاء يهوذا بالطعام

(١) «عرائس المجالس» ص ١١١، وأخرج شطره الأول أحمد في «مسنده» (١٤٠٥٠).

(٢) انظر «عرائس المجالس» ص ١١١.

(٣) «الموضوعات» (٣٩٨).

على عادته إلى الجبِّ فلم يجده، فأخبر إخوته فجاؤوا فرأوه عند مالك بن دعر فقالوا: هذا عبد لنا أَبَق. وكتم يوسف شأنه خوفاً من إخوته أن يقتلوه، فاعترف بأنه عبدهم، وكانوا أهل شرٍّ ومنعة[١].

فإن قيل: فالعبودية هوانٌ عظيم، ويوسف «الكريم بن الكريم بن الكريم...» الحديث[٢]، فالجواب من وجوهٍ:

أحدها: لأنه خرج ليلعب واللعب لا يليق بمثله. وقال أبو حنيفة عبد الوهاب بن النوبي: لم يضحكْ يوسف في مدة البلاء إلا ثلاث مرات، حين وقع في البئر قال: من لعب في خدمة مولاه فغيابة الجب مأواه، وحين قُيِّد قال: من لم يخدم مولاه عظُمت بلواه، وحين نودي عليه بالبيع قال: من لم يرض بمولاه تملكه مولًى سواه. وهذا الضحك منه على وجه التعجب لا على وجه الفرح.

قال: والوجه الثاني: فلأنه نظر يوماً في المرآة فأعجبته نفسه، فقال: لو كنت عبداً لكان ثمني عظيماً فبيعَ بأَوكس ثمن.

والثالث: ليرحم العبيد إذا ملك، وكذا ابتلاه بالسجن ليرحم المسجونين.

والرابع: لأنه جرى في السابق أنه يصير ملكاً فراضَه الله بالعبودية.

وقال أبو حنيفة ابن النُّوبي: إن الله ابتلى يوسف بعشرة أشياء وعوَّضه بعشرة: ابتلاه بفراق أبيه وعوَّضه بلقائه، وابتلاه بجفاء إخوته ثم عوَّضه سجودهم له، وابتلاه بالجبِّ وأكرمه بمؤانسة جبريل، وابتلاه بالعبودية وعوضه عبودية أهل مصر، وابتلاه بزليخا وعوَّضه بالشاهد، وابتلاه بالنسوة وعوَّضه بتصديقهن ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾[يوسف: ٥١] وابتلاه بالهَمَّةِ وعوضه بالعصمة، وابتلاه بالسجن وعوَّضه المُلْك، وابتلاه بالكذب عليه وعوَّضه بالاعتراف ﴿ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ﴾[يوسف: ٥١] وابتلاه بفرعون ثم أطاعه له حتى صار على خزائن الأرض.

قال السُّدي: فلما اعترف يوسف لإخوته بالرِّق قال مالك بن دُعر: أنا أشتريه

---

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ١١٨ـ١١٩.

(٢) تقدم تخريجه في أول قصة يوسف.

منكم، فباعوه منه، فذلك قوله تعالى: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ﴾ أي: باعوه. واختلفوا فيه، قال قتادة: ظُلْم. وقال الضحاك ومقاتل والسدي: حرام لأن ثمن الحرِّ حرام، وقال الشعبي: قليل. وقال مقاتل بن حيان: زيفُ دراهم.

فإن قيل: فَلِم قال: ﴿مَّعْدُودَةٍ﴾[يوسف: ٢٠] ونحن نعلم قطعاً أن الدراهم معدودة؟ فالجواب: أنه على وجه المبالغة في التحقير، لأن القليل يُعَدُّ، والكثير يوزَن، وما كانوا يَزِنون أقل من أربعين درهماً، وإنما كانوا يَعدونها عَدّاً، فإذا بلغ أربعين وزنوه، لأن ذلك عندهم أوقية. وقيل معناه: باعوه بدراهم ناقصة غير وافية لزهدهم فيه.

واختلفوا في مبلغ عدد الدراهم التي باعوه بها على أقوال:

أحدها: عشرون درهماً، قاله ابن مسعود وابن عباس وقتادة والسدي، اقتسموها درهمين درهمين.

والثاني: بتسعة عشر درهماً، ونعلين، اقتسموها درهمين درهمين، وأخذ واحد منهم درهماً مع النعلين، قاله عكرمة.

والثالث: اثنان وعشرون درهماً، قاله مجاهد.

والرابع: ثلاثون درهماً، قاله عكرمة.

والخامس: أربعون درهماً. والأول أصحُّ، ولم يذكر الثعلبي النعلين[1].

فإن قيل: فما معنى النعلين؟ قلنا: فيه إشارة إلى التواضع، لأن من كان في ثمنه نعلان فهو حقير الثمن، فإذا مَلَكَ مِصرَ لا ينبغي له أن يتكبر بل يتواضع.

قلت: ما جرى على يوسف من أصحاب هذه التأويلات قليلٌ، فإنه لو ملك الدنيا من المشرق إلى المغرب بالنسبة إلى ما جرى عليه لكان ذلك حقيراً لا يساوي نعلين.

﴿وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾[يوسف: ٢٠] يعني إخوته، لأنهم لم يعلموا كرامته على الله تعالى، ولا منزلته عنده، ولا ما يؤول أمره إليه.

---

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ١١٩.

ذكر قدومه إلى مصر

قال علماء السير: ثم انطلق مالك بن دُعر وأصحابه بيوسف إلى مصر وتبعهم إخوته يقولون لهم: استوثقوا منه فإنه آبق. فلمَّا قدموا مصر اشتراه العزيز واسمه قطفير بن روبخت، وكان على خزائن مصر. قال ابن عباس: وكان الملك على مصر ونواحيها يومئذ الريان بن الوليد بن ثروان بن راشة بن قاران بن عمرو بن عملاق بن لاوذ بن سام ابن نوح عليه السلام، وقيل: إن هذا الملك لم يمت حتى آمن واتَّبع يوسف على دينه، ومات ويوسف حيٌّ، فملك بعده قابوس بن مصعب بن معاوية بن نمير بن البيلوان بن واران بن عمرو بن عملاق بن لاوذ بن سام بن نوح، وكان جباراً كافراً، فدعاه يوسف إلى الإسلام فأبى أن يقبل، وقيل: إنه أسلم[1].

واختلفوا في مبلغ ثمن يوسف لما بيع بمصر على أقوال:

أحدها: أنه بيع بعشرين ديناراً ونعلين وثوبين أبيضين، حكاه الثعلبي عن ابن عباس[2].

والثاني: بوزنه مسكاً وورقاً، قاله وهب[3].

والثالث: بوزنه ذهباً وفضة، قاله مقاتل.

والرابع: بوزنه ذهباً مراراً، قاله الحسن.

فإن قيل: فكيف أثبت الله الشرى في قوله: ﴿وَشَرَوْهُ﴾، ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ﴾ ولم ينعقد عليه بيع؟ فالجواب: أن الشرى هو المماثلة، فلما وقعت المماثلة بالمال جاز أن يقال: اشتراه على وجه المجاز، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ﴾[التوبة: ١١١] الآية.

وذكر عبد الله بن أحمد بن حنبل في «كتاب الزهد» عن أبيه عن عبد الرزاق عن معمر عن مجاهد عن ابن عباس قال: يُجاءُ يوم القيامة بالعبد فيقال له: ما منعك أن تكون

---

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ١٢٠.

(٢) انظر «عرائس المجالس» ص ١٢٠.

(٣) انظر «عرائس المجالس» ص ١٢٠.

عبدتني؟ فيقول: يا رب، أبليتني وجعلت عليَّ أرباباً يشغلونني عن خدمتك، فيُجاء بيوسف في عبوديته فيقول: أنت أشدُّ عبودية أم هذا؟ فيقول: بل هذا، فيقول: إن هذا لم تمنعه عبوديته أن عبدني[١].

﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ﴾ واختلفوا في اسمها على أقوال:

أحدها: راعيل بنت عابيل، قاله محمد بن إسحاق[٢].

والثاني: زليخا، قاله قتادة.

والثالث: نبوس، قاله أبو هشام الرفاعي[٣].

ومعنى ﴿أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ﴾ أي: منزلته ومقامه ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾ إذا بلغ وفهم الأمور ﴿أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾[يوسف: ٢١] فتبنَّاه، وقال ابن إسحاق: كان قطفير لا يأتي النساء وكانت امرأته حسناء ناعمة طاعمة طامعة في ملكه ودنياه[٤].

وحكى الثعلبي عن عبد الله أنه قال: أفرسُ الناس ثلاثة: العزيز حين قال: «أكرمي مثواه»، والمرأة التي أتت موسى فقالت لأبيها: «يا أبتِ استأجره»، وأبو بكر حين استخلف عمر[٥].

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: كما خلَّصناه من الجبِّ وكيد إخوته وكانوا قد همُّوا بقتله، مكَّنّاه من أرض مصر وصيَّرناه إلى أعلى المنازل عند عزيز مصر وجعلناه على خزائنها. وقال أهل الكتاب: لما تمت ليوسف ثلاثون سنة استوزره فرعون مصر.

﴿وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾[٦] أي تعبير الرؤيا ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾

---

(١) لم نقف عليه في كتاب «الزهد»، وأخرجه أبو نعيم في الحلية ٣/ ٢٨٨، والبيهقي في شعب الإيمان (٩٥٢٧) من كلام مجاهد.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» ١٢/ ١٧٥.

(٣) انظر «عرائس المجالس» ص ١٢٠.

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» ١٢/ ١٧٥.

(٥) انظر «عرائس المجالس» ص ١٢٠.

(٦) انظر «عرائس المجالس» ص ١٢٠.

[يوسف: ٢١] فقد قالت العلماء: حيث أمر يعقوب يوسف أن لا يقص رؤياه على إخوته فغلب أمر الله حتى قصَّها، ثم أراد يعقوبُ أن لا يكيدوه فغلب أمر الله حتى كادوا، ثم أراد إخوة يوسف قتله فغلب أمر الله فلم يقدروا عليه، ثم أرادوا أن يلقوه في الجبِّ ليلتقطه بعض السيَّارة فيندرس اسمه، فغلب أمر الله حتى اشتهر ذكره ونفذ أمره، ثم باعوه ليصير مملوكاً فغلب أمرُ الله حتى صار مالكاً وسجد إخوته له، ثم أرادوا أن يخلو لهم وجه أبيهم، فغلب أمر الله حتى ضاق عليهم قلب أبيهم، ثم أرادوا أن يكونوا من بعده قوماً صالحين تائبين ناسين لذنوبهم، فغلب أمر الله حتى اعترفوا بعد أربعين سنة ﴿إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ﴾[يوسف: ٩٧]، ثم أرادوا أن يَغُرُّوا أباهم بالقميص والدم والبكاء فغلب أمر الله حتى لم يخدع، وقال: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾[يوسف: ١٨، ٨٣] ثم احتالوا حتى تذهب محبته من قلب أبيه، فغلب أمر الله حتى ازداد محبة وشوقاً إليه، ثم احتال يوسف على الخلاص من السجن بقوله للساقي: ﴿ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾[يوسف: ٤٢] فغلب أمر الله حتى نسي الساقي، فلبث في السجن بضع سنين، ثم احتالت امرأة العزيز على أن تزيل المراودة عن نفسها حين قالت: ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا﴾ [يوسف: ٢٥] فغلب أمر الله حتى شهد الشاهد من أهلها. وكل هذا دليل على القول الأول: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[يوسف: ٤٠] ما الله صانع بيوسف ولا ما يؤول إليه أمره.

فإن قيل: فما سبب ميل يعقوب إلى يوسف دون إخوته؟ فالجواب من وجوه:

أحدها: للسرِّ الذي كان فيه.

والثاني: لحسنه وجماله.

والثالث: لأنه لم يكن له أم.

والرابع: لعقله وتأنِّيه.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ﴾ أي: منتهى شبابه وقوَّته، واختلفوا فيه على أقوال:

أحدها: أربعون سنة، قاله مقاتل.

والثاني: ثلاث وثلاثون سنة، قاله مجاهد[1].

---

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» ١٢/ ١٧٧.

والثالث: عشرون سنة، قاله الضحاك[١].

والرابع: ما بين ثماني عشرة سنة إلى ثلاثين سنة، قاله ابن عباس[٢].

والخامس: ستون سنة، حكاه الثعلبي. والأول أصح. وقيل: منتهى الأشد ثلاث وثلاثون سنة، والاستواء عند الأربعين.

﴿ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ واختلفوا فيه على أقوال:

أحدها: العقل والعلم والنبوة، قاله مجاهد.

والثاني: الإصابة في القول، قاله أهل المعاني.

والثالث: علم الرؤيا.

والرابع: مصادر الأمور وموارِدها.

﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[يوسف: ٢٢] أي: الصابرين على نوائب الدنيا كما صبر يوسف، عليه السلام.

فصل في ما جرى له مع امرأة العزيز

قال[٣] الله تعالى: ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ﴾ الآية [يوسف: ٢٣]، أي: أرادته وطلبت منه أن يواقعها ويوافقها ﴿وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ﴾ وكانت سبعة ﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾ [يوسف: ٢٣] أي: زينت وحسنت.

قوله: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا﴾[يوسف: ٢٤] الآية، معنى الهمِّ بالشيء: حديث المرء به نفسه ولم يفعله، قال الشاعر[٤]: [من الطويل]

هممتُ ولم أفعلْ وكدتُ وليتني تركت على عثمان تبكي حلائلُهْ

واختلفوا في قوله: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا﴾ على أقوال كثيرة، منهم من قال: حلَّ

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» ١٢/ ١٧٧.

(٢) انظر «تفسير الطبري» ١٢/ ١٧٧.

(٣) من هنا يبدأ السقط في (ب) إلى تفسير قوله: ﴿وقال الذي نجا منهما﴾.

(٤) هو ضابىء بن الحارث البُرجمي، والبيت في «الشعر والشعراء» ١/ ٣٥٠.

الهِمْيان وجلس منها مجلس الخاتن، قاله ابن عباس[١]، وفي رواية عنه: جلس منها مجلسَ الرجل من أهله. وقال السُّدي: جعلت تذكر له محاسن نفسها حتى همَّ بها، وكان شاباً يجد شبق الشباب[٢].

وأنكر جماعة من المتأخرين هذا وقالوا: لا يليق هذا بالأنبياء وأوَّلوا الآية. فقال بعضهم: همَّ بالفرار منها. وقيل: همَّ بضربها. وقال آخرون: تم الكلام عند قوله: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ﴾ ثم ابتدأ الخبر عن يوسف ﴿وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ على التقديم والتأخير، وتقديره: لولا أن رأى برهان ربِّه لهمَّ بها ولكنه رأى البرهان فلم يَهم. ورُوي عن ابن عباس أنه قال: ولقد همَّت به أن يفترشها وهمَّ بها أن تكون له زوجة.

وهذه التأويلات كلها غير مرضية، أما قول من قال: همَّ بالفرار منها فلا يصحُّ لأن الفرار غير مذكور في الآية، وأما تقدير «لولا» فالعرب لا تقدِّم جواب لولا قبلها، لا تقول: لقد قمت لولا زيد لقمت، وكذا أقوال مَنْ تأوَّلَ غير ذلك. والدليل عليه أنه[٣] لما أقرَّت المرأة وقال يوسف: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ﴾[يوسف: ٥٢] قال له جبريل: ولا حين هممتَ بها يا يوسف، فقال عند ذلك: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ [يوسف: ٥٣].

والمختار في هذا أنَّ الهمَّ همَّان: همٌّ مقيمٌ يضاف إليه عزمٌ ونية ورضًى، مثل همِّ امرأة العزيز، والعبدُ مأخوذ به.

والثاني: عارضٌ وهو الخطرةُ والفكرة وحديث النفس من غير اعتبارٍ ولا عزم، مثل همِّ يوسف عليه السلام، والعبد غير مأخوذ به ما لم يلفظ به أو يفعله. والدليل عليه حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يَقُولُ اللهُ عزَّ وجل: إذا همَّ عَبدِي بحَسنةٍ فَلم يَعمَلها كُتِبَتْ له حَسنةً، وإن عمِلَها كُتِبَت له عَشرُ حَسناتٍ إلى سبع مئةِ ضِعفٍ، وإذا همَّ عَبدِي بِسيئةٍ فإن تَركَهَا من أَجلِي كَتبتُها لَهُ حَسَنةً»[٤].

---

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» ١٢/ ١٨٣.

(٢) انظر «عرائس المجالس» ص ١٢١.

(٣) في (ل): «أن الملك».

(٤) أخرجه البخاري (٧٥٠١)، ومسلم (١٢٨).

وأمّا من نزَّه الأنبياء عن الصغائر فغير جائز لوجوه:

أحدها: ليكونوا على وجلٍ من الله إذا ذكروها فيجدون في الطَّاعة إشفاقاً منهم ولا يتكلمون على حالهم.

والثاني: ليعرِّفهم مواقعَ نعمهِ عليهم بالعفو عنهم.

والثالث: ليجعلهم قادة لأهل الذنوب في رجاء رحمة الله تعالى وترك الإياس من عفوه وفضله، بخلاف الكبائر فإنهم مُنَزَّهون عنها، إذ لا عذر لهم في ارتكابها لأنها تكون على وجه العناد.

واختلفوا في البرهان الذي رآه يوسف على أقوال:

أحدها: أن يعقوب مَثَلَ له فضرب بيده في صدره فخرجت شهوته من أنامله، رواه سعيد عن ابن عباس. وقال الحسن وسعيد بن جبير ومجاهد وعكرمة وابن سيرين وغيرهم: انفرج له سقف البيت فرأى يعقوب عاضّاً على إصبعه، قال ابن جبير: فكل ولد يعقوب وُلد له اثنا عشر ولداً، إلا يوسف فإنه ولد له أحد عشر من أجل ما نقص من شهوته حين رأى صورة أبيه واستحيى منه. وقال قتادة: قال له يعقوب: يا يوسف، تعمل عمل السفهاء وأنت مكتوب في ديوان الأنبياء؟! وقال ابن أبي مليكة عن ابن عباس: قال له يعقوب: يا يوسف، تزني فتكون كالطير وقع ريشه، فيذهب ليطير ولا ريش[1].

والثاني: أنه رأى كتاباً في حائط البيت فيه مكتوب: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً﴾ [الإسراء: ٣٢] الآية، قاله محمد بن كعب القرظي.

والثالث: أنه لما قعد منها مقعد الرجل من أهله بدت له كفٌّ ليس فيها عضد ولا معصم عليها مكتوب: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠ـ١٢] فقام هارباً عنها وقامت، فلما ذهب الرعبُ منهما عادا، فلما قعد منها مقعد الرجل من أهله بدت الكفُّ وفيها مكتوب: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨١] الآية، فقام هارباً وقامت، فلما ذهب عنهما الرعب عاد وعادت، فلما قعد منها مقعد الرجل من امرأته قال الله لجبريل أدركْ عبدي قبل أن يصيبَ

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ١٢٢.

الخطيئة، فانحطَّ جبريل عاضّاً على إصبعه وهو يقول: يا يوسف، أتعمل عملَ السفهاء وأنت مكتوبٌ عند الله في ديوان الأنبياء؟! فذلك قوله: ﴿لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ﴾[يوسف: ٢٤] قاله ابن عباس[١].

والرابع: أنه لما همَّ بها خرجت بينهما كفٌّ بلا جسد مكتوب عليها بالعبرانية: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾[الرعد: ٣٣] ثم انصرف الكف وقاما مقامهما ثم رجعت الكف وعليها مكتوب بالعبرانية: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠ـ١٢] وانصرف الكف وقاما مقامهما ثم عادت الكف ثالثة وعليها مكتوب بالعبرانية: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ﴾ الآية، وانصرف الكف وقاما مقامهما؛ ثم عادت الكف رابعة، وعليها مكتوب بالعبرانية: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾[البقرة: ٢٨١] فولى يوسف هارباً، قاله وهب بن منبه.

قلت: ذكر هذه الأقوال الثعلبي وهي ضعيفة لوجوه:

أحدها: لأن الأنبياء قد نُزِّهوا عن مثل هذا.

والثاني: لأنَّ يوسف قد كان يعلم أنَّ الزنا حرام وكذا مقدماته، وأنَّ ارتكاب الفاحشة قبيح، فكان البرهان الذي رآه العصمةَ عن مثل ذلك الفعل. وقد قال مقاتل: صارت زليخا في عينه سوداءَ مشوَّهة.

وروى علي بن الحسين عن أبيه عن جدِّه عليه السلام أنه قال في تفسير البرهان: إنه كان عندها صنم تعبده فغطت وجهه بثوب، فقال لها يوسف: ما هذا؟ فقالت: أستحيي أن يرانا، فقال: ويحك أنت تستحيين ممن لا يسمع ولا يبصر، أفلا أستحيي أنا ممن يسمع ويبصر[٢]؟

والثالث: أن القرآن لم يكن نزل على يوسف، فمن أين هذه الآيات التي ذكرها ابن عباس ووهب وغيرهما؟!

وقال جعفر بن سليمان: لقيتُ امرأة في بعض الطرق وهي ترفثُ، فقلت: إنكنَّ

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ١٢٢.

(٢) انظر «عرائس المجالس» ص ١٢٣.

صواحبُ يوسف، فقالت: واعجباه نحن دعوناه إلى لذة وأنتم أردتم قتله، وقتل النفس أعظم مما أردناه، فَمَنْ أصحابه نحن أو أنتم؟

وقال الفراء: جواب ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾ لَواقَعَ الفعل ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ﴾ أي: الزنا والإثم ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾[يوسف: ٢٤] أراد المختارين للنبوَّة. ومن قرأها بكسر اللام كأهل مكة والبصرة أراد المخلصين لله في التوحيد والعبادة.

وقيل: إن البرهانَ قطفير، رآه عند الباب.

قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ﴾ الآية، قال علماء السير: لما رأى يوسف البرهان قام مبادراً هارباً مما أرادته منه، واتبعته المرأة لتقضيَ حاجتها، فأدركته فتعلقت بقميصه فجذبته إليها وقدَّته من دُبرٍ لأنها كانت طالبةً ويوسفُ مطلوبٌ، فلما خرجا ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ﴾ أي: وجدا زوجها قطفير عند الباب جالساً مع ابن عم لراعيل، وقيل: إن قطفير كان البرهان، فلما رأته هابته فسبقت بالقول إليه ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا﴾ كَنَتْ عن الزنا ﴿إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[يوسف: ٢٥] يعني بالضرب بالسياط فقال يوسف: ﴿هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى﴾[يوسف: ٢٦] فهربتُ منها فأدركتني فشقت قميصي.

فإن قيل: فالفتى لا يكون غمازاً، فالجواب: ما ذكره نوف الشامي، فإنه قال: ما كان يوسف يريد أن يذكره، فلما قالت: ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا﴾ غضب وقال: ﴿هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى﴾.

قوله تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ﴾[يوسف: ٢٦] واختلفوا في الشاهد على أقوال:

أحدها: أنه كان صبيّاً في المهد أنطقه الله تعالى، رواه العوفي عن ابن عباس وأبي هريرة. وفي حديث ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: «تكلَّم في المهد أربعة: ابن ماشطة فرعون، وصاحب يوسف، وصاحب جريج، وعيسى بن مريم»[1]. وكان الصبي

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» عن ابن عباس موقوفاً (٢٨٢١).

ابن خالتها، فلهذا قال من أهلها.

والثاني: أن الشاهد ابن عم راعيل الذي كان قاعداً على الباب مع زوجها، حكم برأيه فيما أخبر الله عنه في قدِّ القميص، قاله الحسن وعكرمة ومجاهد والضحاك، وهو رواية عن ابن عباس. وكان من خاصة الملك.

والثالث: أنَّ الشَّاهد القميصُ المقدودُ قاله ابن أبي نجيح[1]. وقال ابن عباس: حكَّموا القميصَ فقال ابن عم راعيل: ﴿قَالَ هِيَ رَٰوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [يوسف: ٢٦، ٢٧] فجعل بيان هذا الأمر في القميص.

ولما رأى قطفير القميص قُدَّ من دبر عرف خيانة زوجته وبراءة ساحة يوسف فقال لامرأته: ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي هذا الصنيع ﴿مِن كَيْدِكُنَّ﴾ وقيل: هو من قول الشاهد ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ [يوسف: ٢٨] ثم أقبل قطفير على يوسف وقال: ﴿يُوسُفُ﴾ [يوسف: ٢٩] أي: يا يوسف، نداء مفرد ﴿أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا﴾ الأمر واصرف عنه، ولا تكثرن هذا الحديث ولا تذكره لأحد فقد بان عذرك وبراءتك. ثم قال لامرأته: ﴿وَٱسْتَغْفِرِي لِذَنۢبِكِ﴾ وقيل: إنما هذا من قول الشاهد، يقول: سلي زوجك أن يصفحَ عنك ولا يعاقبك ﴿إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ﴾ [يوسف: ٢٩] أي: المذنبين حيث راودت شاباً عن نفسه وخنتِ زوجك، فلما استعصم كذبت عليه، وهذا قول ابن عباس. وخطئَ الرجلُ يخطىء خطأً إذا أذنب، والاسم الخطيئة، وإنما لم يقل من الخاطئات لأنه لم يرد الخبر عن النساء، وإنما قصد الخبر عن من يفعل ذلك من القوم الخاطئين، ومثله: ﴿وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ [التحريم: ١٢].

فصل في حديث النسوة

قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ﴾ الآية. والعزيز: نائب الملك؛ وقال ابن عباس: لما شاع حديث راعيل في المدينة ـ وهي مصر ـ أنها راودت فتاها عن نفسه عِبْنَ عليها وقلن: عبدها الكنعاني ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ [يوسف: ٣٠] أي: وصل حبُّه إلى شغافها، وهي جِلْدةٌ رقيقة تُسمى لسان القلب إذا وصل الحبُّ إليها عسر خروجه،

(١) انظر «زاد المسير» ٤/ ٢١٢.

وقيل: إنما هي جلدة رقيقة في باطن القلب، وقيل: برَّح بها، وقال مقاتل: إنما قلن ذلك مكراً منهن ليرين يوسف لأنها كانت قد حجبته عنهن ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ﴾ تعني حديثهن ﴿أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ﴾ وكنَّ أربعين امرأةً منهن امرأة الساقي والخباز والحاجب وصاحب السجن ﴿وَأَعْتَدَتْ﴾ أي: أعدَّتْ ﴿لَهُنَّ مُتَّكَأً﴾[يوسف: ٣١] وهو مجلس الطعام وما يتكئن عليه من النمارق والوسائد. قال ابن قتيبة: أصل هذا أنَّ من دعوتَهُ ليطْعَم عندك أعددتَ له وسادةً يتكىء عليها، فسمي الطعام متكأً على الاستعارة، قال عدي بن زيد:

فظَلِلنَا بنَعمةٍ واتَّكأنا وشَربنا الحلالَ من قُلَلِه[1]

واختلفوا فيه: قال ابن عباس: هو الأُترُجُّ[2]. وقال الضحاك: البزماورد[3]. وقيل: الموز والبِطِّيخ، والأصح أنَّه الأترُجُّ وكل ما يقطع بالسكين، دليله قوله تعالى: ﴿وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا﴾ ﴿وَقَالَتِ﴾ ليوسف: ﴿اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾ وزيَّنته بأنواع الجواهر، وكان نور وجهه يشرق على الحيطان كنور الشمس والقمر ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ﴾ أي: عظمنه وأجللنه وهبنه، وقرأ ابن عباس: «أكبرن» بغير هاء، ومعناه: حِضْنَ عند رؤيته ﴿وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾[يوسف: ٣١] أي: حززنها بالسكاكين وجرى الدم، ولم يشعرن بذلك لشغل قلوبهن بيوسف، وهنَّ يحسبن أنهنَّ يقطعن الأُترُجَّ.

وحكى الثعلبي عن وهب بن منبه أنه قال: بلغني أن تسعاً من الأربعين متن في المجلس وَجْداً بيوسف[4].

فإن قيل: فلمَ لم تقطع زليخا يدها؟ فالجواب من وجهين:

أحدهما: أن رؤية يوسف وقعت لهنَّ مفاجأة، والمرأة كانت قد اعتادت النظر إليه، وكلُّ أمرٍ يقعُ بغتةً يؤثر، ألا ترى أن موسى خاف من العصا لما انقلبت حية لأنه ما ألِفها كذلك، ولم يخف من النار لأنه ألفها من يوم التنور.

---

(١) البيت لجميل بن معمر، انظر «الأغاني» ٨/ ٩٤.

(٢) انظر «زاد المسير» ٤/ ٢١٦.

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» ١٢/ ٢٠٢.

(٤) «عرائس المجالس» ١٢٤.

والثاني: لأنهن بغين عليها، والبغي مصرع، فعوقبن بقطع الأيدي.

﴿وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا﴾[يوسف: ٣١] أي: ببشر ﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ﴾ أي: في حبي له. ثم أخبرتهن بما هو أحسن من الصورة الظاهرة، وهو العفاف الباطن، وأقرَّت فقالت: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ﴾ أي: امتنع واستعصى عليَّ، فقلن له: أطع مولاتك، فقالت راعيل: ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ﴾ أي: يطاوعني فيما دعوته إليه ﴿لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾[يوسف: ٣٢] أي: الأذلاء.

وقال مجاهد: ولما راودته ثانياً اختار السجن على مباشرة المعصية، فقال: ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ﴾ ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾ أي: أميل وأتابعهن ﴿وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾[يوسف: ٣٣] أي: العاصين.

فإن قيل: إنما راودته راعيل، وهي واحدة، فكيف قال: ﴿مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ﴾ فالجواب: إنهن أشرن عليه، فانصرف الكلام إليها وإليهن ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾﴾ بمكرهنَّ.

فصل في سجنه

قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم﴾ أي: للعزيز وأصحابه ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْءَايَٰتِ﴾ وهي شهادة الطفل، وقدُّ القميص من دُبر، وقطعُ النسوة أيديهن ﴿لَيَسْجُنُنَّهُۥ﴾[يوسف: ٣٥] وهذه لام اليمين. والحين: الوقت، والمراد به هاهنا: سبع سنين، وقال الكلبي: خمس سنين، والأول أصح.

وقال السُّدي: قالت المرأة لزوجها إن هذا العبد العبراني قد فضحني بين الناس، يقول: راودتني عن نفسي، فإما أن تأذن لي أن أخرج فأعتذر، وإما أن تحبسه كما حبستني، فحبسه بعد علمه ببراءته، فجعل الله الحبس تطهيراً ليوسف من همِّه بالمرأة وتكفيراً لزلَّته[1].

وقال ابن عباس: عثر يوسف ثلاث عثرات: حين همَّ بها فسجن، وحين قال للساقي: ﴿ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾[يوسف: ٤٣] فلبث في السجن بضع سنين وأنساه

(١) «عرائس المجالس» ١٢٤.

الشيطان ذكر ربه، وحين قال: ﴿إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ﴾[يوسف: ٧٠] فقالوا: ﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ﴾[يوسف: ٧٧].

قلت: أمَّا قوله: ﴿إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ﴾ فإنه صادق في قوله، وأيُّ سرقة أعظم من يوسف؟

قوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ﴾[يوسف: ٣٦]، وهما غلامان كانا للوليد بن الريان صاحب مصر، أحدهما خبازه صاحب طعامه، واسمه: مجلث، والآخر ساقيه صاحب شرابه، واسمه: نبو. وكان الملك قد غضب عليهما فحبسهما، لأنه بلغه أنّ خبازه يريد أن يسمَّه، وأن ساقيه مالأه على ذلك، وكان أهل مصر قد سئموا الملك فدسوا إليهما مالاً، فأما الساقي فرجع عن الرشوة، وأما الخباز فقبلها فسمَّ الطعام، فلما أحضره بين يدي الملك قال له الساقي: أيها الملك لا تأكلْ فإنه مسموم، فقال الملك للساقي: اشرب فشرب منه فلم يضرَّه، وقال للخباز: كُلْ فلم يأكل، فجرَّب الطعام في دابةٍ فانفسخت وهلكت، فأمر بحبسهما.

وكان يوسف في السجن يعبِّر الأحلام، فقال الخبَّاز والساقي: نريد أن نجرِّب هذا العبد العبراني بمنام.

واختلفوا هل رأيا شيئاً؟ على قولين: أحدهما: أنهما ما رأيا شيئاً وإنما أرادا أن يجرِّباه، وهذا قول ابن مسعود. والثاني: أنهما رأيا رؤيا، قاله مقاتل.

وقال مجاهد: ولما رأى الفتيان يوسف قالا له: والله لقد أحببناك حين رأيناك، فقال لهما: أنشد كما الله أن لا تحباني، فوالله ما أحبني أحد قط إلا دخل عليَّ من حبِّه بلاءٌ شديد، لقد أحبتني عمتي فدخل عليَّ من محبتها بلاء، يشير إلى المنطقة، لما نذكر، ثم أحبني أبي فدخل عليَّ من حبه بلاء، ثم أحبتني زوجة العزيز فدخل عليَّ من حبها بلاء، يشير إلى الحبس، فلا تحبَّاني بارك الله فيكما. قال: فأبيا إلا حبَّه وأَلِفَاه وجعلا يعجبهما ما يريان من فَهمه وعقله، وقد كانا رأيَا حين أدخلا السجن، فقال الساقي ليوسف: رأيتُ كأني في بستانٍ فإذا نُخَيْلَة عليها ثلاثة عناقيد من عنب فجنيتها، وكان كأس الملك بيدي فعصرتها فيه وسقيت الملك فشربه، وقال الخباز: رأيتُ كأنَّ فوق رأسي ثلاثَ سلالٍ من خبزٍ وألوان الأطعمة وإذا بسباع الطير تنهشُ منه، فذلك

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ﴾ أي: عنباً، واسم هذا القائل نبو، وقال الآخر، وهو مجلث: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ﴾ أي: أخبرنا بتفسيره وتعبيره وما يؤول إليه أمر هذه الرؤيا ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾[يوسف: ٣٦] إلى أهل السجن، كان إذا مرض أحد منهم عاده، وإذا ضاق وسَّع عليه، وإذا احتاج جمع له، وكان يداوي مرضاهم ويعزي حزينهم.

وقال قتادة: كره أن يعبر لهما رؤياهما لما علم ما فيها من المكروه، فأعرض عن سؤالهما وأخذ في غيره، فقال: ﴿لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ﴾ وتطعمانه وتأكلانه ﴿إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ﴾ أي: بتفسيره وألوانه، أي طعام أكلتم وكم أكلتم، فقالا له: هذا من فعل العرَّافين والكُهَّان، فقال: ما أنا بكاهن، وإنما ذلك العلم ﴿مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ إِنِّي تَرَكۡتُ مِلَّةَ قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾[يوسف: ٣٧] لأنهم كانوا يعبدون الأصنام وإنما كرر على التأكيد ﴿وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشۡرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ﴾ أي: ما يجوز لنا ﴿ذَٰلِكَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ﴾[يوسف: ٣٨]، ثم أقبل يوسف عليهما وعلى أهل السجن، وكان بين أيديهم أصنام يعبدونها من دون الله فقال: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ﴾ لكونهما فيه ﴿ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ﴾ آلهة لا تضر ولا تنفع ﴿خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾[يوسف: ٣٩] الواحد: الذي لا ثاني له، القهار: الذي يقهر كل شيء، ثم بين ضعفها وعجزها فقال: ﴿مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم﴾ وإنما قال: «ما تعبدون» وإن كان الخطاب قد بدأ لاثنين لأنه قصد جميع مَنْ هو بمثلِ حالهما من الكفر. والأسماء: للآلهة والأديان والأرباب، من غير أن يكون للتسمية حقيقة ﴿أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ﴾ أي: حجة وبرهان ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ﴾أي: ما القضاء والأمر والنهي ﴿إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ﴾ الذي دعوتكم إليه من التوحيد ﴿ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُۚ﴾ المستقيم ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾[يوسف: ٤٠] ثم فسَّر المنامين لما ألحَّا عليه فقال: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا﴾ وهو الساقي ﴿فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ﴾ أي: سيده يعني الملك ﴿خَمۡرٗاۖ﴾ وأما العناقيد الثلاثة التي رآها فإنها ثلاثة أيام يبقى في السجن ويخرج بأمر الملك ويعود إلى ما كان عليه ﴿وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ﴾ والسلال الثلاث التي رآها فإنها

ثلاثة أيام يبقى في السجن، ثم يخرجه الملك ويُصلب ﴿فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ﴾ فقالا: ما رأينا شيئاً إنما كنا نلعب، فقال يوسف: ﴿قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾[يوسف: ٤١] أي فُرِغ من الأمر الذي سألتما عنه ووجب حكم الله عليكما.

وقال البخاري: حدثنا عبد الله بن محمد بإسناده عن سعيد بن جبير عن نافع عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «أَفْرَى الفِرى أن يُرِيَ الرجلُ عينَيه ما لم تَرَيا» انفرد بإخراجه البخاري(١).

وفي «الصحيحين» عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «من تحلَّم بحلمٍ لم يره كُلِّفَ أن يعقِدَ بين شعرَتَين، ولن يَفْعلَ»(٢).

وقال أبو إسحاق الثعلبي بإسناده عن أبي رَزين العقيلي قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «إنَّ الرُّؤيا على رجلِ طائرٍ ما لم تُعبَّر، فإذا عُبِّرت وقعت، وإنَّ الرُّؤيا جُزءٌ من ستةٍ وأربعينَ جُزءاً من النُّبوةِ»(٣).

قال أبو سليمان الخطَّابي: ومعناه: أن النبي ﷺ أقام في النبوّة ثلاثاً وعشرين سنة، منها بمكة ثلاثة عشر وبالمدينة عشراً، وكان يوحى إليه في منامه في أول الأمر ستة أشهر، وهي نصف سنة، فصارت هذه المدة جزءاً من ستة وأربعين جزءاً من النبوَّة(٤).

﴿وَقَالَ﴾ يوسف عند ذلك ﴿لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا﴾ يعني الساقي، والظن هنا بمعنى اليقين ﴿ٱذْكُرْنِى﴾ إذا خرجت ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ أي: عند الملك، وقل له: إنَّ في السجن غلاماً مظلوماً ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ﴾[يوسف: ٤٢].

واختلفوا في قوله: «فأنساه»: ظاهر الكلام أن الشيطان أنسى الساقي ذِكْرَ يوسف للملك عقوبةً له حيث استغاث بمخلوق مثله، وقد نصَّ عليه محمد بن إسحاق.

قال ابن عباس: وتلك غفلةٌ من يوسف حيث استغاث بمخلوق، ولو استغاث بربه لأسرع خلاصه، ولكنه زلَّ فطال حبسه. والواجب تنزيه الأنبياء على كل حال.

---

(١) صحيح «البخاري» (٧٠٤٣).

(٢) صحيح «البخاري» (٧٠٤٢) وهو من أفراده، انظر «الجمع بين الصحيحين» (١١٦٢).

(٣) «عرائس المجالس» ١٢٦، وهو في «مسند» أحمد (١٦١٨٢).

(٤) «معالم السنن» ٤/ ١٣٩.

﴿فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾[يوسف: ٤٢] واختلفوا فيه، فقال أبو عبيدة: البضع ما بين الثلاثة إلى الخمسة، وقال مجاهد: ما بين الثلاث إلى السبع، وقال قتادة: ما بين الثلاث إلى التسع، وقال ابن عباس: ما دون العشرة.

وأكثر المفسرين على أن البضع في هذه الآية سبع سنين. وقال وهب: أصاب أيوبَ البلاءُ سبع سنين، وترك يوسف في السجن سبع سنين[١].

وحكى الثعلبي عن الفراء: أن البضع لا يذكَّر إلا مع عشرة وعشرين إلى تسعين، قال: وكذلك رأيت العرب تفعل، ولا يقولون: بضع ومئة ولا بضع وألف.

وقال مالك بن دينار: لما قال يوسف للساقي: اذكرني عند ربك، قيل له: يا يوسف اتخذتَ من دوني وكيلاً، لأُطيلنَّ حبسك، فبكى وقال: يا رب أنْسى قلبي كثرةُ البلوى فقلتُ كلمةً، فويلٌ لإخوتي[٢].

وروى الوالبي عن ابن عباس قال: دخل جبريل الحبس على يوسف، فلما رآه عرفه فقال يوسف: يا أخا المنذِرين، ما لي أراك بين الخاطئين؟ فقال له جبريل: يا طاهر ابن الطاهرين، يقرأ عليك السلام ربُّ العالمين ويقول لك: ما استحييت مني حيث استشفعتَ بالمخلوقين؟ فوعزتي وجلالي لأُلبثنك في السجن بضعَ سنين، قال يوسف: وهو في ذلك عني راضٍ؟ قال: نعم، قال: إذن لا أبالي[٣].

قال الكلبي: وهذه السبع غير الخمس الأول التي كانت قبل ذلك. وقال مقاتل: أجرى الله على لسان يوسف ما كان سبباً لحبسه اثنتي عشرة سنة، خمسة متقدمة وسبعة متأخرة، وهي قوله: ﴿ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ اثنا عشر حرفاً[٤].

فصل ذكر خروجه من السجن

قال علماء السِّير: ولما دنا فرَجُهُ، رأى ملك مصر الريانُ بنُ الوليد رؤيا هالته، رأى

(١) «عرائس المجالس» ١٢٧.
(٢) «عرائس المجالس» ١٢٧.
(٣) «عرائس المجالس» ١٢٧.
(٤) «عرائس المجالس» ١٢٧.

سبع بقرات سمانٍ يخرجن من نهر يابس، وسبع بقرات عجاف مهازيل، فابتلعت العجافُ السمانَ فدخلن في بطونهن، ورأى سبع سنبلات خضر قد انعقد حبها، وسبعاً أُخَر يابساتٍ قد استحصدت وأفركت، فالتَوت اليابسات على الخضر حتى علين عليها، فجمع السحرةَ والكهنة والقافة وقصَّها عليهم وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ﴾ أي: الأشراف ﴿أَفْتُونِى فِى رُءْيَىَ﴾ فاعبروها ﴿إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾[يوسف: ٤٣] أي: تفسرون، والرؤيا: الحلم ﴿قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ﴾[يوسف: ٤٤] أي: مختلطة مشتبهة وأباطيل، واحدها ضِغْثٌ، وهو الحزمة من أنواع الحشيش، ومنه قوله تعالى: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا﴾[ص: ٤٤] والأحلام: جمع الحلم، وهي الرؤيا[1].

﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا﴾ أي: من القتل وهو الساقي ﴿وَٱدَّكَرَ﴾ أي: ذكر حاجة يوسف وقوله: «اذكرني» ﴿بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ أي: بعد حين، وقيل: بعد نسيان ﴿أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ﴾[يوسف: ٤٥] أي: فأطلقوني لأمضي إلى السجن، فإن فيه من يعرف تأويلها فأرسلوه. وقال ابن عباس: لم يكن السجن في المدينةِ بل بعيداً عنها: فقال: ﴿يُوسُفُ﴾ أي: يا يوسف ﴿أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ﴾ فيما عبَّرتَ لنا من الرؤيا، والصديق: الكثير الصدق ﴿أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ﴾ الآية فإن الملك قد رأى هذه الرؤيا ﴿لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ﴾ أي: إلى مصر ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[يوسف: ٤٦] فضلك، فقد عجزوا عنها، فقال يوسف: أمَّا البقرات السمان والسنبلات الخضر، فسبع سنين مخاصب، والبقرات العجاف والسنبلات اليابسات فسبع سنين مجدبة، فذلك قوله: ﴿تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا﴾ أي: كعادتهم في الزراعة سائر السنين ﴿فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾[يوسف: ٤٧] وإنما أشار عليه بذلك لتبقى الغلة ولا تفسد ﴿ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ﴾ يعني سبع سنين مُجدبة قحطة ﴿يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ﴾ يعني يأكلن أو يؤكل فيهنَّ ما أعددتم لهن، وهذا مجاز من الكلام ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ﴾[يوسف: ٤٨] أي: تحرزون وتدخرون ﴿ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ [يوسف: ٤٩] قال وهب: وهذا من علم الغيب الذي علَّمه الله ليوسف، لأنه لم يكن في رؤيا الملك هذه الزيادة. وقال قتادة: زاده الله علم سنة لم يسألوه عنها. ويغاث الناس: من الغَيث، ويعصرونَ العنبَ خمراً، والزيتون زيتاً، والسمسم دهناً.

(١) إلى هنا انتهى السقط في (ب).

وقال الملك: ائتوني به ﴿أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي﴾، قال علماء السِّير: لما رجع الساقي إلى الملك، وأخبره بتأويل يوسف لرؤياه قال ذلك، لأنه علم صدقَ تعبيره، فقال: ائتوني بهذا الذي عبَّر رؤياي فقد وقع في قلبي صدقه ﴿فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ﴾ قال له: أجب الملك، فقال للرسول: ﴿ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أي: سيدك ﴿فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ والمرأة التي حُبست بسببها ﴿إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾[يوسف: ٥٠] أي: بصنيعهن.

فإن قيل: فهذا الجواب غير مطابق للسؤال، لأن طلب الملك له لا تعلق له بالنسوة. فالجواب: إنما قصد براءَة ساحته عند الملك وإظهارَ عذرِهِ للناس، لأن حديثه وصل إلى الملك، فأراد أن يزولَ ما في باطن الملك مما نُقِلَ إليه عنه لينتفع به ويحسن ظنُّه ولا يبقى في قلبه أثر.

وقد روينا في «الصحيحين» عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: « ولو لبثتُ في السِّجنِ ما لبِثَ يُوسفُ لأجَبتُ الدَّاعي»[(١)]. وقد ذكرنا الحديث في سيرة الخليل عليه السلام.

وذكر الثعلبي حديثاً فقال: قال رسول الله ﷺ: «لقد عجِبتُ من يُوسفَ وكرمِه وصبرِه، واللهُ يَغفرُ له، حينَ سُئل عن البقراتِ السِّمانِ والعِجافِ، ولو كنتُ مكانَه ما أخبرتُهم بشيءٍ حتى يُخرجُوني، أو أشترط عليهم أن يُخرجُوني، ولقد عجِبتُ من يُوسفَ وصبرِه وكرمِه، واللهُ يغفرُ له، حين أتاهُ الرَّسولُ فقال: ﴿ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾[يوسف: ٥٠] الآية، ولو كنتُ مكانَه ولبثتُ في السِّجنِ ما لبثَ لأسرعتُ الإجابةَ وبادرتُهم إلى البابِ وما ابتغيتُ العُذرَ إنَّه كان لحليماً ذا أناة»[(٢)]. وكل هذا مدح ليوسف عليه السلام.

وقال ابن عباس: لو خرج يوسف قبل أن يعلم الملك شأنه، مازالت في نفس العزيز منه حاجةٌ، يقول: هذا الذي راود امرأتي.

---

(١) صحيح «البخاري» (٣٣٧٢)، وصحيح «مسلم» (٢٣٨).

(٢) «عرائس المجالس» ١٢٨، وتفسير الثعلبي ٥/ ٢٢٨ـ٢٢٩، وأخرجه الطبري ١٦/ ١٣٦، وابن أبي حاتم ٧/ ٢١٥٦ مرسلاً عن عكرمة.

ولما عاد الرسول إلى الملك وأخبره بما قال يوسف، دعا الملك النسوةَ وامرأة العزيز وقال لهن: ﴿مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ أي: ما شأنكن وما قصتكن ﴿قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ﴾ أي: معاذ لله ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾ أي: زنا، وإنما امرأة العزيز أخبرتنا بأنها راودته.

فإن قيل: إنما راودته امرأة العزيز، فكيف قال: «إذ راودتنَّ»؟ فالجواب: لما وافقْنَها في قولهن ليوسف: أَطِعْ سيدتك، صار كأنهنَّ راودنه جميعاً.

﴿قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ﴾ أي: ظهر وتبين وبان الصحيح من الكذب ﴿أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[يوسف: ٥١] في قوله: ﴿هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى﴾[يوسف: ٢٦]. فقال يوسف: ﴿ذَٰلِكَ﴾[يوسف: ٥٢] الذي فعلتُ من ردِّي الرسول إليه في شأن النسوة ﴿لِيَعْلَمَ﴾ العزيز قطفير ﴿أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ﴾ في زوجته في حال غيبته عني وخلوتي بها، قال ابن عباس: فقال له جبريل: ولا حينَ هممتَ بها؟ فقال يوسف: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ﴾ [يوسف: ٥٣]. وقال مقاتل: اتصل قول يوسف ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ﴾ بقول المرأة ﴿أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ﴾[يوسف: ٥٢] الذين يخونون مواليهم في نسائهم.

ومعنى ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ أي: بالفاحشة ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[يوسف: ٥٣] فلما ظهر للملك عذر يوسف وعرف أمانته وفضله قال: ﴿ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى﴾[يوسف: ٥٤] لأنه كان قد بلغه حديث زليخا. فلما ظهر برهانه زال ما كان في نفسه، وهذا من معجزات يوسف عليه السلام.

قال مقاتل: ولما جاءه الرسول قال له: أجب الملك، قال: سمعاً وطاعة، أما الآن فنعم. ثم دعا لأهل السجن وبكى وبكوا لفراقه لأنه كان محسناً إليهم، ووقف على باب السجن ودعا لهم فقال: اللهم اعطفْ عليهم قلوبَ الأخيار ولا تعمِّ عليهم الأخبار. قال وهب: فهم أعلم الناس بأخبار الدنيا، ثم كتب على باب السجن: هذا قبر الأحياء، وبيت الأحزان، وتجربة الأصدقاء، وشماتة الأعداء[1]. ثم دخل على الملك

(١) انظر «عرائس المجالس» ١٢٨.

فسلَّم عليه بالعربية فقال له الملك: ما هذا اللسان؟ فقال: لسان عمِّي إسماعيل، ثم دعا له بالعبرانية، فقال الملك: ما هذا اللسان؟ قال: لسان آبائي.

قال وهب: وكان الملك يتكلم بسبعين لساناً، فكلما كلّم يوسف بلسان أجابه يوسف بذلك اللسان، فأعجب الملكَ ما رأى منه، وكان يوسف يومئذ ابن ثلاثين سنة وازداد به عجباً، ورأى حسنه وجماله فدهش، وقربه وأكرمه، وقال له: ﴿إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾[يوسف: ٥٤] ثم قال له: أحبُّ أن أسمع رؤياي منك شفاهاً، قال: نعم أيها الملك، رأيتَ سبع بقرات سمان شهب غرٍّ حسان كشف لك عنهن النيلُ، فطلعن عليك من شاطئه تشخب أخلافهن لبناً ويعجبك حسنهن، إذ نضب النيل وغار ماؤُهُ، فخرج من حمأته ووحله سبعُ بقراتٍ عجاف شُعْث غُبر مقلَّصات البطون، ليس لهن ضروع ولا أخلاف ولهن أنياب وأضراس وخراطيم كالكلاب والسباع، فافترسن السمانَ فأكلنهن ومزَّقن جلودهن، فبينما أنت تعجبُ إذا بسبع سنابلَ خضرٍ وسبع أُخر سود، فعجبتَ وقلت: المنبَتُ واحد، فبينما أنت تقول في نفسك ذلك إذ هبتْ ريحٌ فذرتِ اليابسات على الخُضْرِ اليانعات وأشعلتْ فيهن ناراً فأحرقتهن، قال: صدقت فما تعبير هذه الرؤيا؟ قال: أرى أن تجمع الطعام وتزرعَ مهما قدرت عليه في هذه السنين المخصبات، وتجعلَ الطعام في الأهراء[1] بحاله في سنبله وقصبه، ليكون علفاً للدواب ويحفظَ الطعام من التغيّر، وإن الناس يشترون منك في الأعوام المجدبة بمالٍ لا تسعه خزائنك، فقال: ومن لي بهذا ومن يكفيني أمره فقال يوسف: أنا، فحينئذ قال: ﴿ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾[يوسف: ٥٥] أي: كاتب حاسب حافظ لأمانتي[2].

فإن قيل: قد وصف نفسه بالأمانة والحفظ، وكان ينبغي أن يصفه غيره، فالجواب: إنه عَلِمَ بسنيِّ المجاعة والقحط، فخاف أن يتولَّى أمرَ الناس من يضيعهم، فسأل ذلك لأنه مؤيدٌ بالوحي، وقد قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾[الضحى: ١١].

فتوقف الملك سنةً، ويوسف عنده في قصره.

---

(١) بيوت معدّة لحفظ الطعام.

(٢) «عرائس المجالس» ١٢٩، وتفسير الثعلبي ٥/ ٢٢٥ـ٢٢٦.

وقال أبو إسحاق الثعلبي بإسناده عن الضحاك عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «رَحِمَ الله أخِي يُوسفَ لو لم يقُلْ ﴿ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ﴾ لاستَعمَلَه من ساعتِه، ولكنَّه أخَّره سنة»[١].

وحكى الثعلبي عن [ابن] أبي الهذيل قال: أقام يوسف عند الملك، فقال له الملك: أريد أن تخالطني في كل شيء سوى أني آنف أن تأكل معي. فقال يوسف: إني أحق أن آنف، أنا ابن يعقوب إسرائيل الله، ابن إسحاق ذبيح الله، ابن إبراهيم خليل الله، فكان يأكل بعد ذلك معه[٢].

وروى مقاتل: أن عمر بن الخطاب عرض على أبي هريرة الإمارة فامتنع، وقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ طَلَبَ الإمارَةَ لم يَعدِلْ فيها» فقال له عمر: قد طلب الإمارة من هو خيرٌ منك يوسف عليه السلام حيث قال: ﴿ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾[يوسف: ٥٥][٣].

فإن قيل: فلمَ لمْ يستثن يوسف وقال: إني حفيظ عليم إن شاء الله؟ قلنا: خصَّ الله هذه الأمة بالاستثناء دون سائر الأمم، ولأن يوسف على ثقة من أمانته بخلاف الغير.

ودلت الآية على أن الوالي ينبغي أنْ يكون جامعاً بين العلم والأمانة؛ لأنه متى كان علمٌ بغير أمانة ضاع ما يلزم حفظه، ومتى كانت أمانة بغير علم لم يحسنْ بالوالي أن يتصرف.

وقال ابن عباس: لما انصرمت السنة من يوم سأل الإمارةَ دعاه الملك فتوَّجه وردَّاه بسيفه، ووضع له سريراً من ذهب مكلَّلٍ بالدُّر والياقوت، وضرب عليه كِلَّةً[٤] من استبرق، وطول السرير ثلاثون ذراعاً وعرضه عشرة أذرع، وعليه ثلاثون فراشاً وستون

(١) تفسير الثعلبي ٥/ ٢٣١، وعرائس المجالس ١٢٩ـ١٣٠.

(٢) تفسير الثعلبي ٥/ ٢٣٢، وعرائس المجالس ١٣٠، وأخرجه الطبري ١٦/ ١٤٧، ١٤٨، وابن أبي حاتم ٧/ ٢١٥٩، وما بين معكوفين من المصادر.

(٣) تفسير الثعلبي ٥/ ٢٣٢، وأخرج أبو نعيم في «الحلية» ١٠/ ٢٥، والذهبي في «السير» ١٢/ ٩٤ من حديث عمر بن الخطاب قال: «من حرص على الإمارة لم يعدل فيها».

(٤) الكِلَّةُ: الستر الرقيق.

مِقْرَمَة[١]، ثم أمره أن يخرج، فخرج متوَّجاً ووجهه كالقمر يرى فيه الناظر وجهه من صفائه، ودخل قطفيرُ بيته، وفوَّض إليه الملك وعزل قطفير عما كان عليه، وجعل يوسف مكانه، ثم لم يلبث قطفير أن مات، فزوج الملك يوسفَ راعيلَ امرأةَ قطفير فلما دخل بها قال لها: أليس هذا خيراً مما كنت تريدين؟ فقالت: أيها الصدِّيق لا تلمني، فإني كنت امرأة حسناء ناعمة كما ترى في دنيا واسعة، وكان صاحبي لا يأتي النساء، وكنتَ كما جعلك الله في حسنك وجمالك، فغلبتني نفسي.

ولما دخل بها وجدها بكراً، فولدت له رجلين أفرائيم وميشا، وولد لأفرائيم نون وولد لنون يوشَع، وولد لميشا موسى نبي آخر قبل موسى بن عمران.

قال ابن قتيبة: ويزعم أهلُ التوراة أنه هو الذي رأى الخضرَ عليه السلام[٢].

وقد روي أن يوسف تزوج امرأة العزيز بعد مدة من ملكه وسنذكره.

وقال ابن الكلبي: واستوسق ليوسفَ ملك مصر، وأقام فيهم العدل وأحبه الرجال والنساء، فذلك قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: ملكناه ﴿يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٥٦] أي: الصابرين على مثل ما أصاب يوسف وصبر عليه في الجب والسجن والرق وغيره.

وقد أكثر الشعراء في قصته فقال البحتري[٣]:

أَمَـا فـي رسـولِ اللهِ يـوسـفَ أُسـوةٌ ... لِمِثْلِكَ مَحْبُوساً على الظُّلْمِ والإفْكِ
أقامَ جميلَ الصبر في الحبْسِ بُرْهَةً ... فآل به الصَّبرُ الجميلُ إلى المُلْكِ

ويوسف أوَّل من عمل الكاغد[٤].

وأمر الناس فزرعوا، وترك الزرع في سنبله في السنين المخصبة، ودخلت السنون المجدبة وكان يوسف قد دعا الملك إلى الإسلام فأسلم هو وأهل بيته، فهذا في الدنيا

---

(١) في تفسير الثعلبي ٥/ ٢٣٢: مرفقة، وفي «عرائس المجالس» ١٣٠ـ١٣١: نمرقة، وكلها بمعنى مَحْشيِّ الفراش وما يوضع عليه من ثياب ملونة فيها رقم ونقوش.

(٢) «المعارف» ص ٤١.

(٣) «ديوان البحتري» ٣/ ١٥٦٤، وعرائس المجالس ١٣٠.

(٤) الكاغد: القرطاس.

﴿وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾[يوسف: ٥٧] أي: ثواب الآخرة.

وقال ابن الكلبي: جاع الناس واشتدَّ الأمر، وجاء هولٌ لم يُعْهَدْ مثله، ولما كان ابتداء القحط، بينما الملك ذات ليلةٍ نائم استيقظ وقد أصابه جوعٌ شديد فصاح: يا يوسف الجوع، فقال يوسف: هذا أوان القحط. ودخلت السنة الأولى، باعهم يوسف الطعام بالنقود حتى لم يبقَ عندهم درهم ولا دينار حتى قبضه، وباعهم في السنة الثانية بالحلي والجواهر حتى لم يبق في أيدي الناس منها شيء، ثم باعهم في السنة الثالثة بالمواشي والدواب حتى احتوى على الجميع، ثم باعهم في السنة الرابعة بالعبيد والإماء بأسرهم، ثم باعهم في السنة الخامسة بالعقار والضياع والدور حتى احتوى على الجميع، ثم باعهم في السنة السادسة بأولادهم حتى استرقهم، ثم باعهم في السنة السابعة برقابهم حتى صار جميع من بمصر عبيداً له. فقال الناس: تالله ما رأينا كاليوم ملكاً أجلَّ ولا أعظم من هذا[1].

وقال وهب: مدَّ السيل بمصْرَ فحسر عن غارٍ في أصل جبل المُقَطَّم، فأبدى عن بيتٍ عليه مصراعان، ففتحوهما فإذا ببَهْو فيه سرير من ذهبٍ، وعليه امرأةٌ عليها سبع عقود وسبع أساور، وعند رأسها لوحٌ من ذهب فيه مكتوب: أنا شادةُ الملكة بنتُ الملكِ الفلاني أصابتنا مجاعةٌ في زمن يوسف فبذلت صاعاً من درٍّ في صاع من برّ فلم يوجد، فطحنت الدرَّ وأكلته فمتُّ جوعاً.

ثم قال يوسف للملك: كيف رأيت الله خوَّلني، أو كيف رأيت صُنْعَ الله فيما خولني؟ فماذا ترى؟ فقال: نحن لك تبع، قال: فإني أُشهد الله وأُشهدك أني قد أعتقت أهل مصر عن آخرهم ورددتُ عليهم أموالهم وأملاكهم.

وروي: أن يوسف كان لا يشبعُ في تلك الأيام من طعام، فقيل له: أتجوع وبيدك خزائن مصر؟ فقال: أخاف إن شبعت نسيت الجياع. وأمرَ خبازَ الملكِ وطباخَه وساقيه أن يجعلوا طعامَهُ نصفَ النهار، فلذلك جعل الملوكُ طعامهم نصف النهار، وما فعل ذلك إلا لئلا ينسى المَلِكُ الجياع.

---

(١) انظر «عرائس المجالس» ١٣٠ـ١٣١.

وقال ابن الكلبي: واشتغل يوسف عن زليخا فانحنت وعميت وغيَّرها الزمان.

ذكر دخول إخوة يوسف مصر لطلب الميرة وما جرى لهم معه

قال علماء السير: ولما وقع القحط بمصر عمَّ ذلك الشام وغيره، فقصد الناسُ مصرَ من كل ناحية يمتارون، ونزل بيعقوب ما نزل بالناس، وكان يوسف لا يمكِّن أحداً من حمله الطعام إلى الشام سوى حمل بعير واحدٍ، تقسيطاً بين الناس وتوسعةً عليهم، فأرسل يعقوب بنيه العشرة، وكان منزلهم بالعَرَبات من أرض فلسطين بغَور الشام، وكانوا أهل بادية وإبل وشاء، وأمسك بنيامينَ عنده، فلما دخلوا عليه عرفهم يوسف وهم له منكرون[1].

فإن قيل: فلمَ أنكروه؟ فالجواب من وجوه:

أحدها: ما ذكره ابن عباس قال: كان بين أن ألقوه في الجب وبين أن دخلوا عليه أربعون سنة، فلذلك أنكروه.

والثاني: لأنه كان متزياً بزيّ فرعون مصر، عليه ثياب الحرير، جالساً على سرير من ذهب، وفي عنقه طوق من ذهب، وعلى رأسه تاج من الذهب مرصع بالجواهر، فلذلك أنكروه، قاله مقاتل.

والثالث: أنه كان بينه وبينهم ستر، قاله مجاهد.

والرابع: كان على وجهه برقع من اللؤلؤ، قاله الضحاك.

والخامس: لأنهم جنوا عليه، والجناية تورث النُّكْرة، والوفاء يورث المعرفة، ولما أرادَ الله من إنفاذ قضائه وقدره[2].

فلما نظر إليهم يوسف كلَّموه بالعبرية فقال: من أنتم؟ ومن أين أقبلتم؟ قالوا: نحن قوم رعاة من الشام أصابنا الجهد فجئنا نمتار، فقال: لعلكم عيونٌ جئتم تنظرون عورةَ بلادي، قالوا: لا والله ما نحن بجواسيس، وإنما نحن إخوة بنو أب واحد، وهو شيخ

(١) انظر «عرائس المجالس» ١٣١.

(٢) انظر «عرائس المجالس» ١٣١، وتفسيره ٥/ ٢٣٣، وزاد المسير ٤/ ٢٤٧.

صدِّيق يقال له: يعقوب، نبيٌّ من أنبياء الله، قال: فكم أنتم؟ قالوا: كنا اثني عشر، فذهبَ أخٌ لنا مَعَنا إلى البرية فهلك فيها، وكان أحبَّنا إلى أبينا، قال: فكم أنتم هاهنا؟ قالوا: عشرة، قال: فأين الآخر قالوا: عند أبينا لأنه أخو الذي هلك من أُمِّه، فأبونا يتسلَّى به، قال: فمن يعلم أنَّ الذي تقولون حق؟ قالوا: أيها الملك إنا ببلاد لا نعرفُ بها أحداً ولا يعرفنا أحدٌ. قال يوسف: فأتوني بأخيكم الذي من أبيكم إن كنتم صادقين، فأنا أرضى بذلك. قالوا: إن أبانا يحزن على فراقه وسنراوده عنه وإنا لفاعلون. فقال: دعوا بعضكم عندي رهينةً حتى تأتوني بأخيكم، فاقترعوا بينهم فأصابت القرعة شمعون[1]، وكان أبرَّهم بيوسف وأحسنهم رأياً فيه، فخلَّفوه عنده فذلك قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ﴾ يعني حمل لكل واحد بعيراً بعددهم ﴿قَالَ ٱئْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ﴾ يعني بنيامين ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ﴾ أي: لا أبخسُ الناس شيئاً وأتمُّ لهم كيلهم وأزيدهم حملَ بعير يعني آخر لأخيكم، وأحسن إليكم ﴿وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ [يوسف: ٥٩] ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ﴾ [يوسف: ٦٠] أي: لا تقربوا بلادي ﴿قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ﴾ أي: نخدعه حتى يرسله معنا ﴿وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ﴾[يوسف: ٦١] ما أمرتنا به.

وروي عن ابن عباس أنه قال: لم يأخذ منهم رهينة في المرة الأولى، بل ترك بضاعتهم في رحالهم. ثم قال يوسف «لفتيته[2]»، أي: لغلمانه: ﴿ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ﴾ وفِتْيَته هم الذين يكيلون الطعام، والبضاعةُ هنا ثمن طعامهم.

وروى الضحاك عن ابن عباس قال: كانت بضاعتهم النعال والأدم والرحال والأوعية. وقيل: كانت دراهم فوضعوا كل صُرَّةٍ في حِمْلٍ ولم يعلم بها صاحبها ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[يوسف: ٦٢] إليَّ.

فإن قيل: فلم فعل ذلك؟ فالجواب من وجوه:

أحدها: أنه خاف أن لا يكون عند أبيه من الورق ما يرجعون به إليه مرةً أخرى، قاله

---

(١) لعل الصواب: «يهوذا» فهو كان أبرّهم بيوسف كما تقدم في الصفحة ٤٧٨، وسيرد في الصفحة ٥١٤ أنه هو الذي كان محتبساً بمصر.

(٢) كذا في النسختين (ب) و(ل). وهذه قراءة أبي عمرو وابن كثير وابن عامر ونافع وأبي جعفر المدني ويعقوب. وقرأ حفص وخلف والكسائي وحمزة: لفتيانه، بنون بعد الألف، انظر التيسير ١٢٩، والنشر ٢/ ٢٩٥.

ابن الكلبي.

والثاني: خشي أن يضرَّ أخذه منهم ذلك بأبيهم إذ كانت السنةُ سنةَ جدب وقحط فأحبَّ أن ترجع إليه، وإنما قصد أن يتسع بها أبوه.

والثالث: لأنه رأى [لؤماً][1] أَخْذَ ثمن الطعام من إخوته وأبيه مع حاجتهم إليه، فردَّه عليهم من حيثُ لا يعلمون تكرّماً وتفضُّلاً.

والرابع: لأنه علم أَن أمانتهم تحملهم على ردِّ البضاعة، وأنهم لا يستحلون إمساكها فيرجعون لأجلها، وطمعاً في كرمه.

والخامس: أنه قصد أنهم إذا رأوها لم يروا أخذها مع الطعام لاحتمال أن كيَّال الطعام نسيها فيرجعون إليه، لا لأنهم أَدَّوْا الأمانة، لأن خيانتهم قد ظهرت في حق يوسف، وإنما يرجعون بها لئلا يراهم الملك بعين الخيانة، فلا يمكِّنهم من دخول مصر، فيموتون جوعاً.

فلما رجعوا إلى أبيهم قالوا: يا أبانا قدمنا على خير رجل، أنزلنا وأكرمنا كرامةً لو كان رجلاً من ولد يعقوب لما أكرمنا كرامته، فقال لهم يعقوب: إذا أتيتم ملك مصر فأقرئوه مني السلام وقولوا له: إن أبانا يصلِّي عليك ويدعو لك بما أوليتنا. ثم قال: أين شمعون؟ قالوا: أخذه الملك رهينةً، وقصوا عليه القصة، قال: ولمَ أخبرتموه؟ قالوا: لأنَّا كلَّمناه بالعبرية فقال: أنتم جواسيس.

﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا﴾ بَنْيامِين ﴿نَكْتَلْ ، وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾[يوسف: ٦٣] فقال يعقوب: ﴿هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ﴾ يوسف ﴿مِن قَبْلُ ، فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾[يوسف: ٦٤].

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾ ومعناه: وأي شيء نطلب وراء هذا؟ أَوْفى لنا الكيل وردَّ علينا الثمن، وأرادوا بذلك أن يطيِّبوا نفسَ أبيهم كأنهم قالوا: ما نريد منك دراهم ﴿هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾ أي: نشتري لهم الطعام فنحمله إليهم، يقال:

(١) ما بين معقوفين من عرائس المجالس ٣٢، وتفسير البغوي ٢/ ٤٣٥، و«زاد المسير» ٤/ ٢٤٩ـ٢٥٠.

مَارَ أهلَه يميرُهم مَيْراً ﴿وَنَحْفَظُ أَخَانَا﴾ بنيامين ﴿وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ أي: من أجله ﴿ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾[يوسف: ٦٥] لا كلفةَ فيه ولا مشقة.

وحكى الثعلبي عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿حِمْلُ بَعِيرٍ﴾ أي: حمل حمار، قال: وهي لغة، يقال للحمار: بعير، ولم يكن بأرض كنعان جمال وإنما كانت الحمير.

فقال: ﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ﴾ أي: ميثاقاً وعهداً ﴿لَتَأْتُنَّنِي بِهِۦٓ﴾ وقال جويبر عن الضحاك عن ابن عباس: حتى تحلفوا لي أن لا تغدروا بأخيكم ﴿إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾ فتهلكوا جميعاً، وقال قتادة: إلا أن تُغلبوا حتى لا تطيقوا ذلك ﴿فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ﴾ أي: أعطوه عهودهم ﴿قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾[يوسف: ٦٦] أي: شاهد وحافظ بالوفاء، وقيل: كفيل، ولما خرجوا من عنده قال لهم: ﴿لَا تَدْخُلُوا﴾ مصر ﴿مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ﴾.

فإن قيل: فالدخول من باب واحد أكثر في الهيبة، فالجواب من وجوه:

أحدها: أنه خاف عليهم العين لأنهم كانوا ذوي جمالٍ وهيبة وصورٍ حسان وقاماتٍ ممتدة، وكانوا ولد رجل واحد، فأمرهم أن يتفرقوا عند دخولها لئلا تصيبهم العين.

والثاني: أن معناه: لا تسألوا الملك حاجةً واحدة بأجمعكم، بل كل واحد يسأله حاجة.

والثالث: تفرقوا لعلكم تظفرون بيوسف، ثم قال: ﴿وَمَآ أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ ومعناه: أن المقدور كائن، وأن الحذر لا ينفع من القدر ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾[يوسف: ٦٧] أي: المفوِّضون.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم﴾ وكان لمصر أربعة أبواب، فدخلوها من أبوابها كلِّها ﴿مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ أي: من قَدَره ﴿إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا﴾ والحاجة: هي شفقتُه عليهم من العين ﴿وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ﴾ يعني يعقوب ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[يوسف: ٦٨].

فإن قيل: فكيف جاز ليوسف أن يفرِّقَ بين يعقوب وبين بنيامين، مع علمه بما في قلب أبيه من الحزن عليه وأنه يتسلَّى به.

فالجواب من وجوه: أحدها: أنه قصد تنبيه يعقوب بذلك على حياة يوسف. والثاني: أنه قصد سرور يعقوب بردِّ يوسف وأخيه عليه جملة. والثالث: أن هذه التفرقة تكون سبباً للوصلة.

ولما دخلوا على يوسف ومعهم بنيامين قال لهم: أهلاً وسهلاً بكم، وأكرم مثواهم وقال: سوف أفعل معكم ما ترون. وقال ابن الكلبي: لما دخلوا عليه قالوا: هذا أخونا الذي أمرتنا أن نأتيك به، فأجلس كل اثنين منهم على مائدة، وبقي بنيامين وحده يبكي ويقول: لو كان أخي يوسف حيّاً لأجلسني معه. فقال يوسف: قد بقي أخوكم هذا وحيداً، فأَجْلَسه معه على مائدته وأكل معه، ثم فرش لكلِّ اثنين فراشاً، وفرش لبنيامين فراشاً فبكى فقال: نم معي على الفراش، فنام فجعل يضمه إليه ويشم ريحه ويبكي، فلما أصبح أنزلهم منزلاً وأحسن ضيافتهم، وقال: أرى هذا الرَّجُل الذي أتيتم به ليس معه ثانٍ، فسأضمُّه إليَّ فيكون منزله عندي. وخلا بأخيه فقال: ما اسمك؟ فقال: بنيامين، وقال: وأمك؟ فقال: راحيل، قال: فهل لك أخ؟ قال: كان وهَلَك، فقال يوسف: أتحبُّ أن أكون أخاك؟ فقال: من لي بذلك، ولكن لم يلدك يعقوب وراحيل، فبكى يوسف وقال: إني أنا أخوك وقام واعتنقه[1]. فذلك معنى قوله: ﴿ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَخَاهُۖ﴾ ثم قال له: اكتم هذا عن القوم ﴿فَلَا تَبۡتَئِسۡ﴾ أي: لا تحزن ﴿بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾[يوسف: ٦٩] بنا فيما مضى، فإن الله قد أحسن إلينا.

وقال عبد الصمد بن مَعْقِل، سمعت وهب بن منبه، وقد سئل عن قول يوسف لأخيه: ﴿إِنِّيٓ أَنَآ أَخُوكَ﴾ فكيف أخافه حين أُخِذَ بالصُّواع، وقد زعمتم أن يوسف لم يزل متنكراً لهم إلى آخر الأمر؟ فقال وهب: لم يعترف له بالنسبة، ولكنه قال: أنا أخوك مكانَ أخيك الهالك، ولم يقل له: أنا يوسف على الفور.

ثم طلب إخوة يوسف منه الكيل فأمر بذلك، ثم أمر بالسقاية أنْ تُجعلَ في رَحلِ بَنْيامِين.

والسقاية: المشربة التي يشرب بها الملك، وكانت من ذهب مرصعة بالجواهر،

(١) انظر «عرائس المجالس» ١٣٣.

وقيل: كانت من فضة، جعلها يوسف مكيالاً لئلا يُكالَ بغيرها. وقال ابن عباس: كان لأبي في الجاهلية مثلها وهي والصواع واحدٌ.

وقال السُّدي: جُعلت في رحْل بنيامين ولم يشعر.

وقال كعب: لما قال له ﴿إِنِّيٓ أَنَآ أَخُوكَ﴾ قال بنيامين: فأنا لا أفارقك، قال يوسف: قد علمتَ اغتمام والدي بي، ومتى حبستك ازداد غمه فلا يمكنِّي هذا إلا بعد أن أنسبك إلى أمر فظيع لا يليق[1] بك، فقال: افعل ما بدا لك فإني لا أفارقك. قال: فإني أَدُسُّ صاعي في رحلك ثم أنادي عليك بالسرقة، قال: افعل، فذلك قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ﴾ أي: هيَّأ لهم أسباب الميرة ﴿جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ﴾ بنيامين ثم ارتحلوا مرحلة، وأرسل يوسف مَن رَدَّهم وحبسهم ﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ﴾ أي: نادى منادٍ ﴿أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ﴾ وهي القافلة التي فيها الجمال، قال الفراء: لا يقال: عير إلا لأصحاب الإبل، وقال مجاهد: كانت العير حميراً ﴿إِنَّكُمْ لَسَـٰرِقُونَ﴾[يوسف: ٧٠] ثم قالوا لهم: ألَم نكرمْ مثواكم ونوفِّكم الكيلَ ونحسنْ إليكم؟ قالوا: فما الذي بكم؟ ﴿وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم﴾ أي: عطفوا على المؤذِّن وأصحابه وقالوا: ﴿مَّاذَا تَفْقِدُونَ﴾؟ ﴿قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ﴾ وقرأ أبو هريرة: «صاع الملك» ﴿وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٢] أي: كفيل. ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ومعناه: والله ﴿وَمَا كُنَّا سَـٰرِقِينَ﴾ [يوسف: ٧٣]، ولما دخلنا بلادكم كَعَمْنا[2] أفواهَ الإبل لئلَّا ترعى ما ليس لها، فكيف نسرق وقد رددنا عليكم الدراهم؟ فلو كنا سارقين ما رددناها.

فإن قيل: فكيف سمَّاهم يوسف سارقين وما سرقوا؟ فالجواب: إنه من قول المنادي، ولو كان من قول يوسف فقد سرقوه.

﴿قَالُوا۟﴾ يعني المنادي وأصحابه ﴿فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَـٰذِبِينَ﴾[يوسف: ٧٤] ﴿قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ﴾[يوسف: ٧٥] وهو أن يسلَّم إلى المسروق منه فيسترقَّه سنةً، وكان ذلك سنَّةَ آلِ يعقوب في حكم السارق. فقال المنادي: لابد من

(١) من هنا بدأ خرم في (ب) ينتهي بعد ثلاث صفحات.

(٢) كعم البعير: شدَّ فاه لئلا يعض أو يأكل.

تفتيش رحالكم. وانصرف بهم إلى يوسف ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ﴾ دفعاً للتهمة، وكان يفتش أمتعتهم واحداً واحداً[1]. قال قتادة: ذكر لنا أنه كان لا يفتش ولا ينظر في وعاء إلا استغفر الله تأثماً مما قذفهم به[2]. حتى إذا لم يبقَ إلا بنيامين قال: ما أظنُّ هذا أخذ شيئاً، فقال إخوته: والله لا يُتْرَكُ حتى يُنْظَر في رحله، فإنه أطيبُ لنفسك ولنفوسنا، ففتحوا متاعه واستخرجوه منه، فذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ﴾ وإنما قال: «استخرجها»، لأن الصاعَ يذكَّر ويُؤَنَّث، وقيل: ردَّه إلى السقاية، وقيل: إلى السرقة.

واختلفوا في معنى قوله ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ قال مجاهد: يعني كما فعلوا به في الابتداء فعلنا بهم في الانتهاء، لأن الله تعالى أخبر عن يعقوب أنه قال: ﴿فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا﴾ والكيد جزاء الكيد.

وقال ابن عباس: معناه «كذلك كِدْنا ليوسف» أي: ألهمناه وصنعنا له حتى ضمَّ أخاه إلى نفسه وحال بينه وبين إخوته بعلَّة كادها الله له، فاعتلَّ بها يوسف ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ﴾ ويضمَّه إلى نفسه ﴿فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ﴾ أي: في حكمه وقضائه، وبه قال قتادة.

وقال الضحاك: إن يوسف لم يتمكن من أخذ أخيه بَنْيامين وحبسه عنده في دين الملك، أي: في حكمه، لولا ما تلطفنا له حتى وجد السبيل إلى ذلك، وهو ما أجري على لسان إخوة يوسف أنَّ جزاءَ السارق الاسترقاق فأقرُّوا به وسلَّموا أخاهم، وكان ذلك مرادَ يوسف به.

﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ بالعلم كما رفعنا درجة يوسف على درجة إخوته ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾[يوسف: ٧٦] قال الحسن: ما على ظهر الأرض عالم إلا وفوقه عالم حتى ينتهي العلم إلى الله تعالى.

وقال وهب: ولما أخرج الصُّواع من رحل أخيه نكَّسَ إخوتُه رؤوسهم من الحياءِ وأقبلوا على بنيامين وقالوا: يا بني راحيل ما يزال لنا منكم بلاء، متى أخذتَ هذا

(١) انظر «عرائس المجالس» ١٣٤.

(٢) «عرائس المجالس» ١٣٥.

الصُّواع؟ فقال بنيامين: بل بنو راحيل لا يزال بهم منكم البلاء، ذهبتم بأخي فأهلكتموه في البرية، وضَعَ الصُّواع في رحلي الذي وضع الدراهم في رحلكم.

ثم قالوا ليوسف: ﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ﴾[يوسف: ٧٧] واختلفوا في ذلك على أقوال:

أحدها: أن يوسف أخذ صنماً كان لجده أبي أمه فكسره وألقاه في الطريق، قاله سعيد بن جبير وقتادة.

والثاني: إن أمَّه أمَرته أن يسرق صنماً لخاله كان يعبده، وكانت مسلمة، قاله ابن جريج.

والثالث: أنه جلس يوماً مع إخوته على طعام فأخذ يوسف عرقاً فخبَّأه فعيَّروه، قاله الربيع.

والرابع: أن سائلاً جاءه فسرق بيضةً من البيت فدفعها إليه فعيَّروه بها.

والخامس: إنما كانت دجاجة دفعها إلى السائل، قاله سفيان بن عيينة.

والسادس: أنه سرق عَنَاقاً فدفعها إلى السائل، قاله كعب.

والسابع: أنه كان يخبأ من المائدة طعاماً للفقراء، قاله وهب.

والثامن: أنه كان مع أبيه عند خاله لابان فأخذ تمثالاً صغيراً من ذهب، قاله زيد بن أسلم.

والتاسع: أن أول ما دخل من البلاء على يوسف أن أمه لما وضعته رفعه يعقوب إلى أخته بنت إسحاق فأقام عندها حتى ترعرع وأحبته حباً شديداً، فطلبه يعقوب منها فقالت: لا صبر لي عنه فَدَعْهُ عندي أياماً، وعمدت إلى منطقة كانت لإسحاق يتوارثونها بالكبر، وكانت أكبر ولد إسحاق، فشدَّتها على وسطه تحت ثيابه، وكان من سنَّتهم أنَّ السارقَ يُسْتَرقُّ بسرقته، فلما جاء يعقوب يطلبه قالت: فقدتُ المنطقةَ، ثم وضعت مَنْ كَشَفَ ثيابَ يوسف فظهرت المنطقة، فأخذته، فلم يقدرْ عليه يعقوبُ حتى ماتت أخته، قاله ابن عباس وابن أبي نجيح والضحاك ومجاهد[1]. وهذا المثل السائر:

(١) انظر «عرائس المجالس» ١٣٥.

عُذْرُه شرٌّ من جُرمه، كذا قولُ إخوة يوسف: ﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ﴾.

وقال مقاتل: أقبلوا يلطمون وجه بنيامين وهو يقول: وشيبةِ إبراهيم ما سرقتُ، ويبكي، وإنما قال ذلك ليقصروا عن ضربه ومعيرته ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ﴾ أي: أضمرها ﴿وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾ ومعنى أسرَّها إشارة إلى المقالة فأنَّثَ للكناية و﴿قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ أي: شر منزلاً عند الله ممن رميتموه بالسرقة ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾[يوسف: ٧٧] أي: تكذبون.

قال مقاتل: ثم إن يوسف أخذ الصواع بيده فنقره[1] ثم أدناه إلى أذنه وقال: هذا الصُّواع يخبرني أنكم كنتم اثني عشر رجلاً وأنكم انطلقتم بأخٍ لكم صغير فألقيتموه في جبٍّ ثم بعتموه، فقام بنيامين وسجد له وقال: أيها الملك سَلْ صواعك هل أخي حيٌّ أم لا؟ فنقره فقال: هو حيٌّ وسوف تراه[2].

فإن قيل: فالصواع لا ينطق، قلنا: هذا على سبيل المجاز والتوسعة، فقال بنيامين: أيها الملك سَلْ صُواعك فيخبرك بالحق مَن الذي سرقه وجعله في رحلي؟ فنقره وقال: إن صواعي غضبان يقول: كيف تسألني عن صاحبي وقد رأيتَ مع مَنْ كنتُ؟ وكان بنو يعقوب إذا غضبوا لم يطاقوا، فغضب روبيل وقال: والله أيها الملك لَتَتْرُكَنَّا أو لأصيحنَّ صيحة لا يبقى بمِصْر امرأةٌ حاملٌ إلا وأَلقتْ ما في بطنها، وقامت كلُّ شعرةٍ في جسده فخرجتْ من ثيابه، وكان بنو يعقوب إذا غضب منهم واحد فمسَّه آخر من ولد يعقوب ذهب غضبه فقال يوسف لابنه: قم إليه فَمُسَّهُ، ففعل، فذهب غضبه، فقال روبيل: إن في هذا البلد لبذراً من بذر يعقوب.

فلما أصرَّ يوسف على أنه لا يسلِّم إليهم أخاهم ﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[يوسف: ٧٨] في أفعالك وقبولك لنا.

فإن قيل: فما معنى هذا الإحسان وقد فعل بهم ما فعل؟ فالجواب من وجهين: أحدهما: أن معناه من المحسنين إن أطلقتَ أخانا. والثاني: بإنزالك إيَّانا وإكرامنا وعدم المؤاخذة بما قلنا.

---

(١) هنا ينتهي الخرم في (ب) الذي أشير إليه قريباً.

(٢) انظر «عرائس المجالس» ١٣٥.

﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ﴾ ولم يقل: مَنْ سرق احترازاً من الكذب ﴿إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ﴾[يوسف: ٧٩] إنْ أخذنا بريئاً بسقيم.

﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ﴾ أي: يئسوا أن يجيبهم إلى ما سألوا ﴿خَلَصُوا۟ نَجِيًّا﴾ أي: خلا بعضهم ببعض يتناجون ويتشاورون لا يخالطهم غيرهم ﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ﴾ واختلفوا فيه، قال ابن عباس: رُوبيل، وقال مجاهد: شمعون، وقال مقاتل: يَهُوذا، وكان أسنهم وأعقلهم، وقال ابن إسحاق: لاوِي ﴿أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا﴾ أي: عهداً ﴿مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُّمُونِى فِى يُوسُفَ﴾ أي: قصَّرتم ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ﴾ أي: بأرض مصر ﴿حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِى﴾ بالخروج منها ﴿أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى﴾ بالخروج منها وترك أخي فيها ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾[يوسف: ٨٠] الفاصلين بين الناس.

قوله تعالى: ﴿ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ﴾ هذا قولُ أخيهم يَهوذا الذي كان محتبساً بمصر ﴿فَقُولُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ﴾ صُواع الملك ﴿وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا﴾ وليست هذه شهادة، وإنما هي إخبار عن ما نُسب إلى بنيامين من السرقة ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ﴾[يوسف: ٨١] أي: ما كنا نعلم أنَّ ابنك سيسرق، ولو علمنا ما أخذناه معنا. وقال الضحاك: الغيب بلغة حمير هو الليلُ، يعنون أنه سرق ليلاً وهم نيام.

﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا﴾ وهي مصر ﴿وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ أي: القافلة، ومن صحبناه من جيراننا، وكل هذا قالوه ليزيلوا التهمة عنهم.

فلما وصلوا إلى أبيهم وأخبروه ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ أي: حَسَّنَتْ وزيَّنت، ومعناه فصبري جميلٌ ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا﴾ يعني يُوسف وبَنْيامين وأخاهما المقيم بمصر ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ﴾ بحزني على فقدهم ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾[يوسف: ٨٣] فيما حكم علي ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ﴾ أي: أعرض ﴿وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ والأسف أشد الحزن ﴿وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ﴾ قال مقاتل: أقام ست سنين لم يبصر بهما ﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾[يوسف: ٨٤] والكظيم: المكظوم الممسك على الحزن الذي لا ينتهي عنه، ومنه كظم الغيظ.

وقال أبو إسحاق الثعلبي بإسناده عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: «لَم يُعْطِ الله أُمَّةً مِنَ الأمم» ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾[البقرة: ١٥٦] عند المُصيبَةِ

إلَّا هذِه الأمةَ، ألَم تَسمَعْ إلى قولِ يعقوبَ حينَ أصابَه ما أصابَه، فإنَّه لم يَسترجِعْ، وإنَّما قال: ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٨٤][1]. وقال الفرّاء: معناه يا ربِّ ارحمْ شدةَ أسفي على يوسف.

وقال الحسن البصري: بين خروج يوسف من حجر أبيه وبين أن التقيا ثمانون عاماً لم تجفَّ فيها عينا يعقوب، وما كان على وجه الأرض أكرم على الله من يعقوب. وفي رواية: مات أخو الحسن البصري فأقام سنة لا ينام الليل، فقيل له في ذلك فقال: الحمد لله الذي لم يجعل حزن يعقوبَ على ولده عاراً.

فإن قيل: فقوله: ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ لا يوافق فصبرٌ جميل، قلنا: قد ذكرنا أن معناه يا ربِّ ارحم شدَّة أسفي على يوسف فلا يكون شكاية.

وقال أبو حنيفة ابن النُّوبي: لما قال: ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ نودي: أتشكونا وقد أخذنا منك واحداً وأبقينا أحد عشر؟

﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ﴾ أي: لا تزال ﴿حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا﴾ أي: دَنَفاً، وقيل: هالكاً فاسداً ﴿أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ﴾[يوسف: ٨٥] أي: الموتى.

فلما أغلظوا له ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ لا إليكم، والبث: أشدُّ الحزن، وقيل: إنما سمِّيَ البثُّ أشدَّ الحزن لأن صاحبه لا يصبرُ عليه حتى يَبُثَّهُ، أي: يظهره.

وحكى الثعلبي قال: دخل على يعقوب جار له فقال له: ما لي أراكَ قد انهشمت وفنيت، ولم تبلغ من السن ما بلغ أبوك؟ فقال: همُّ يوسفَ فعل بي هكذا، فأوحى الله إليه، يا يعقوب، أتشكوني إلى خلقي؟ فقال: يا ربِّ خطيئةٌ أخطأتها فاغفرها لي، قال: قد غفرتها لك، وكان بعد ذلك إذا سئل قال: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾.

وفي رواية: أن يعقوب كبر حتى سقط حاجباه على عينيه فكان يرفعهما بخرقة، فقال له رجل: ما الذي بلغ بك ما أرى؟ فقال: طول الزمان وكثرة الأحزان. فأوحى الله

---

(١) «عرائس المجالس» ١٣٧ ، وتفسير الثعلبي ٥/ ٢٤٧، وأخرجه الطبري ٣/ ٢٢٤، والبيهقي في شعب الإيمان (٩٢٤٢) من قول سعيد بن جبير، قال البيهقي: رفعه بعض الضعفاء إلى ابن عباس ثم منه إلى النبي ﷺ.

إليه، وذكره.

وفي رواية: وعزَّتي لو كانا ميتين لأخرجتهما لك حتى تنظر إليهما، وإنما وجدت عليك لأنك ذبحت شاةً فقام ببابك مسكين فلم تطعمه منها شيئاً، وإن أحبَّ خلقي إليَّ الأيتام ثم المساكين، فاصنع طعاماً وادعُ إليه المساكين، فصنع طعاماً وقال: من كان صائماً فليفطر الليلة عند آل يعقوب.

وذكر الثعلبي عن وهب قال: أوحى الله إلى يعقوب: أتدري لم عاقبتك وحبست يوسف عنك ثمانين سنة؟ قال: لا يا إلهي، قال: لأنك شويتَ عَنَاقاً وقتَّرتَ على جارك فلم تطعمه. وفي رواية: وقف على بابك سائلٌ اسمه دانيال فرددته خائباً، فانصرف حزيناً.

قال: وقال وهب والسُّدي وغيرهما[1]: جاء جبريل عليه السلام إلى يوسف وهو في السِّجن فقال: هل تعرفني أيها الصدِّيق؟ قال: أرى صورةً طاهرةً وريحاً طيبة، قال: أنا الروح الأمين، رسولُ ربِّ العالمين، قال: فما الذي أدخلك مدخل المذنبين، وأنت أطيب الطيبين، ورأس المقربين، قال: ألم تعلم يا يوسف أن الله يطهر البيوت والأرضين بالنبيين وقد طهَّر بك السجن وما حوله يا أطهر الطاهرين وابن الصالحين المخلصين، قال: وكيف لي باسم الصدِّيقين، وأنا في عداد المذنبين، وقد دخلت مدخل العاصين؟ قال: لأنك لم تعصِ ربّك ولم تطع امرأة العزيز فلذلك ألحقك الله بآبائك الصالحين، قال: هل لك علمٌ بيعقوب؟ قال: نعم وهَب الله له الصبر الجميل وابتلاه بالحزن عليك فهو كظيم، قال: فما قدْر حزنه؟ قال: حزن سبعين ثكلى، قال: فما له من الأجر؟ قال: أجرُ مائةِ شهيد، قال: أفتراني لاقيه؟ قال: نعم؛ فطابت نفس يوسف وقال: ما أبالي ما لقيتُ إن رأيته.

وقال مقاتل: أوحى الله إلى يعقوب أتدري لم عاقبتك؟ قال: لا، قال: لأنك ذبحتَ شاةً وهي تنظر إلى سخلتها، فعاقبتك بفراق ولدك لتذوقَ ألم الفراق.

وقال أبو حنيفة النُّوبي: فأراه دماً بدم، وفرقةً بفرقة، وحرقة بحرقة، فقال: يا إلهي

(١) تفسير الثعلبي ٥/ ٢٤٩ـ٢٥٠، و«عرائس المجالس» ١٣٧.

فولدي حيّ؟ قال: نعم وسوف تراه. فما ذبح بعدها شاة ولا أكل إلا مع مسكين أو يتيم. وقيل إنه مال إليه بقلبه فابتلي بفراقه.

﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[يوسف: ٨٦] قال ابن عباس: أعلم أن رؤيا يوسف صادقة، وأنكم ستسجدون له.

وقال مجاهد: دخل ملك الموت على يعقوب فقال له: هل قبضت روح يوسف؟ قال: لا، فطمع في لقائه.

وقال مجاهد: خرج يعقوب إلى البرية فرأى ذئباً فسلَّم عليه وكلَّمه فقال له يعقوب: أكلتم ولدي وقرةَ عيني، قال: لا والله يا يعقوب، إنَّ الله حرَّم علينا لحومَ أولاد الأنبياء، فحينئذ قال لبنيه: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُوا۟﴾ أي: تقنطوا ﴿مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ﴾ أي: من فَرَجه ورحمته ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[يوسف: ٨٧] وقال ابن عباس: التحسس ـ بالحاء المهملة ـ في الخير، وبالجيم في الشرّ.

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ﴾ وفي الآية إضمار تقديره: فخرجوا راجعين إلى مصر فدخلوا على يوسف ﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ﴾ أي: يا أيها الملك بلغة حمير ﴿مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ﴾ الجوع والقحط ﴿وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ﴾ أي: قليلة كاسدة غير نافقة.

واختلفوا في هذه البضاعة ما كانت، على أقوال:

أحدها: كانت دراهم زيوفاً لا تَنْفُقُ إلا بوضيعة[1]، قاله ابن عباس. والثاني: أنها متاع الأعراب الصوف، قاله باذان.

والثالث: السمن. والرابع: حبّ الصنوبر وحبة الخضراء، قاله مقاتل.

والخامس: كانت فلوساً، قاله ابن جبير.

والسادس: كانت أَقِطاً، قاله الحسن.

والسابع: سَويق المُقْل[2].

---

(١) يعني بنقصان.

(٢) طعام يتخذ من دقيق الشعير أو الحنطة.

والثامن: النعال والأدم، قاله الضحاك.

﴿فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ﴾ أي: أعطنا ما كنت تعطينا من قبل بالثمن الجيد الوافي ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ﴾ أي: تفضَّل ولا تُنْقِصْنا من السعر، هذا قول أكثر المفسرين، وقال ابن جريج: معناه وتصدَّقْ علينا بردِّ أخينا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ﴾[يوسف: ٨٨].

فإن قيل: فلمَ لمْ يقولوا: إن الله يجزيك؟ قلنا: لأنهم ما عرفوا أنه على الإسلام وظنوه كافراً. وفي الآية دليلٌ على أن الصدقة كانت على الأنبياء وأولادهم حلالاً، قال سفيان الثوري[1]: ودلَّ على ذلك هذه الآية، وإنما حرمت على نبيِّنا ﷺ. وسمع الحسن رجلاً يقول: اللهم تصدَّقْ عليَّ فقال: يا هذا إنّ الله لا يتصدَّق، وإنما يتصدَّق من يبغي الثواب، وإنما قُلِ: اللهمَّ أعطني وتفضَّلْ عليَّ.

﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ اختلفوا في السبب الذي حمل يوسف على هذا القول، على أقوال:

أحدها: أنهم لما كلَّموه بهذا القول رقَّ لهم وغلبه دمعه فباح بما كان يكتم، قاله ابن إسحاق.

والثاني: أنه حكى لهم عن مالك بن دُعر أنه قال: وجدت غلاماً في بئر فاشتريته بكذا وكذا درهماً، فقالوا: أيها الملك نحن بعنا ذلك الغلام منه، فغاظ ذلك يوسف وأمر بقتلهم، فذهبوا بهم ليقتلوهم، فقال يهوذا: كان يعقوب يحزن ويبكي لفقد واحدٍ منَّا حتى كفَّ بصره، فكيف إذا بلغه قتل بنيه كلِّهم؟ ثم قال له يَهُوذا: إذا كان ولابدَّ من قتلنا فابعثْ بأمتعتنا إلى أبينا فهو بمكان كذا، فبكى حينئذ ورقَّ لهم، قاله الكلبي.

والثالث: لأن يعقوب كتب إليه كتاباً يقولُ له فيه: مِن يعقوب إسرائيل الله ابن إسحاق ذبيح الله ابن إبراهيم خليل الله، أما بعد: فإنَّا أهل بيت موكّل بنا البلاء، أما جدي فشدَّت يداه ورجلاه وألقي في النار فجعلها الله عليه برداً وسلاماً، وأما أبي فشدَّت يداه ورجلاه ووضعت السكين على حلقه، ففداه الله، وأما أنا فكان لي ابن

(١) القول في تفسير الطبري ١٦/ ٢٤٢، والثعلبي ٥/ ٢٥٢، وعرائس المجالس ١٣٩، وزاد المسير ٤/ ٢٧٩ وغيرها من كتب التفسير: عن ابن عيينة لا الثوري.

وكان أحبَّ أولادي إليَّ، فذهب به إخوته إلى البرية، ثم أتوني بقميصه ملطخاً بالدم وقالوا: أكله الذئب، فذهبت عيناي من البكاء عليه، وكان له أخ من أمه كنتُ أتسلَّى به، فذهبوا به وعادوا وقالوا إنه سرق وإنك حبسته. وإنّا أهل بيت لا نسرق ولا نلدُ سارقاً، فإن رددته وإلّا دعَوتُ عليك دعوةً تبلغُ السابعَ من ولدك. فلما قرأ يوسف كتابه لم يملك عينيه أن فاضتا، ثم قال لهم ذلك. قاله سعيد بن جبير.

وروي أن يوسف كتب إلى أبيه: أما بعد فإنك ذكرتَ ما ابتلي به آباؤك، فاصبر كما صبروا تظفر كما ظفروا، والسلام.

والرابع: أن يوسف سأل بنيامين فقال: ألك ولد؟ قال: نعم ثلاثة بنين، قال: فما سميتهم؟ قال: سميت الأكبر يوسف، قال: ولِمَ؟ قال: محبة لك، قال: فما سميت الثاني؟ قال: ذئباً؟ قال: لم فعلت ذلك وهو سبع عقور؟ قال: لأَذْكُرَكَ به، قال: فما سَمَّيْتَ الثالث؟ قال: دماً، قال: ولم؟ قال: لأنهم جاؤوا على قميصك بالدَّم. فلما سمع يوسف هذه المقالة خنقته العبرة وقال لهم: ﴿هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ﴾[يوسف: ٨٩]، بما يؤول إليه أمره ونصره عليهم[1]. وقيل: جاهلون مذنبون، لأن المذنب جاهل في وقت ذنبه، وقال الحسن: إذ أنتم شباب، لأن مظنة الجهل الشباب، وهذا أجود.

فإن قيل: إنما أساؤوا إلى يوسف فلم قال: «وأخيه» ولم يسعوا في حبسه؟

فالجواب: إنهم لما فرَّقوا بينهما وهما من أمّ واحدة فقد أساؤوا إليهما.

﴿قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ﴾ كشف الحجاب عن وجهه فعرفوه، وقال ابن عباس: لما قال لهم: ﴿هَلْ عَلِمْتُم﴾ تبسَّم، وكان إذا تبسَّم كأن ثناياه اللؤلؤ المنظوم، فلما أبصروا ثناياه شبهوه بيوسف. وعن ابن عباس قال: لم يعرفوه حتى وضع التاج عن رأسه، وكان له في قرنه علامة، وليعقوب ولإسحاق ولسارة مثلها، وهي شبيهة الشامة، فقالوا ﴿قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ﴾ بنيامين ﴿قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآۖ﴾ بأن جمع بيننا بعدما فرقتم أنتم ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ﴾ الله بأداء فرائضه واجتناب

(١) انظر «عرائس المجالس» ١٣٩.

محارمه ﴿وَيَصْبِرْ﴾ على الوقوع في الجبّ والبيع والحبس ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[يوسف: ٩٠] فقالوا مقرِّين معتذرين: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾ أي: اختارك وفضلك بالعقل والعلم، والفضل والحلم، والحسن والملك ﴿وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ﴾[يوسف: ٩١] في صنعنا بك[1]. وسئل ابن عباس فقيل له: كيف قالوا: ﴿وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ﴾ وقد كانوا تعمدوا ذلك؟ [فقال:] معناه أخطؤوا الحق وإن تعمدوا، وكلُّ من أتى ذنباً فقد أخطأ المنهاج.

﴿قَالَ﴾ يوسف وكان حليماً موفقاً: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ أي: لا تعيير ولا تأنيب عليكم، ولا أذكر لكم ذنباً بعد اليوم، ثم دعا لهم فقال: اليوم ﴿يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾[يوسف: ٩٢] قال ابن عباس: ولما فتح رسول الله ﷺ مكة أخذ بعضادتي باب الكعبة، وقد لاذ الناس بالبيت فقال: «ما تظنون أني فاعل بكم»؟ قالوا: نظن خيراً، أخ كريم وابن أخ كريم وقد قدرتَ، قال: «وأنا أقول كما قال أخي يوسف لإخوته ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ الآية».

ثم قال: ما فعل الشيخ أبي بعدي؟ قالوا: ذهبت عيناه، فأعطاهم قميصه وقال: ﴿ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا﴾ أي: مبصراً ﴿وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾[يوسف: ٩٣] فإن قيل: فمن أين علم يوسف ذلك؟ فالجواب: إن ذلك القميص كان من الجنة، وقيل: كان القميص الذي كساه الله الخليلَ يوم النار، وقد ذكرناه. وقال مقاتل: قال له جبريل: ابعثْ به فإنه لا يقع على مبتلى إلا وعوفي.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ﴾ يعني من مصر إلى أرض كنعان ﴿قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ روى مجاهد أن الريح استأذنت ربها في أن تأتي يعقوب بريح يوسف قبل أن يأتيه البشير، فأذن لها فأتته به، قال مجاهد: وجد ريحَ يوسفَ من مسيرة ثلاثة أيام فوصل إلى يعقوب ذلك لأنها صفقت [القميص] فاحتملت ريح يوسف فوجد يعقوب ريح الجنة، فعلم أنه ليس في الأرض من ريح الجنَّة إلا ما كان من ذلك القميص[2]. وقال ابن عباس: وجد ريحه من مسيرة ثمانية أيام. وقال الحسن: كان

(١) انظر «عرائس المجالس» ١٤٠.

(٢) انظر «عرائس المجالس» ١٤٠ وما بين معقوفين زيادة منه.

بينهما ثمانون فرسخاً. وعن ابن عباس: مثلُ ما بين البصرة والكوفة.

فإن قيل: فلم قال: ﴿رِيحَ يُوسُفَ﴾ ولم يقل: ريح القميص؟

فالجواب: أن غرضه كان يوسف ولهذا لم يجد ريح القميص من كان عند يعقوب ﴿لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾[يوسف: ٩٤] أي: تُجهّلون وتسفّهون رأيي وتكذبون ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾﴾[يوسف: ٩٥] أي: خطأك في حبِّ يوسف لا تنساه.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ﴾ أي: المبشر، قال ابن عباس: وهو يهوذا بن يعقوب.

قال السُّدي: قال يهوذا: أنا ذهبت بالقميص ملطخاً بالدم إلى أبي فأخبرته أنه أكله الذئب، وأنا أذهب بالقميص فأبشره أنه حي فأفرحه كما أحزنته.

وقال السُّدي عن ابن عباس: حمله يهوذا دونهم، وخرج حاسراً حافياً يعدو حتى أتاه، مَشَى ثمانين فرسخاً في سبعة أيام، ومعه سبعة أرغفة لم يستوفِ أكلها حتى وصلَ إليه فـ ﴿أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا﴾ بعدما كان أعمى، وعاد قوياً بعد أن كان ضعيفاً ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[يوسف: ٩٦] من حياة يوسف وأنَّ الله يجمع بيننا؟ فقالوا عند ذلك: ﴿يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ﴾[يوسف: ٩٧] أي: مذنبين ﴿قَالَ﴾ يعقوب ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ﴾.

فإن قيل: فلم أخَّر يعقوب الاستغفار بقوله: ﴿سَوْفَ﴾؟ فالجواب من وجوه:

أحدها: أنه أخَّره إلى وقت السحر لأن الدعاءَ بالأَسحار لا يُحْجَبُ عن الله تعالى، قال وهب: وأقام يستغفر لهم كلَّ ليلةِ جمعةٍ وقتَ السحر نيفاً وعشرين سنة.

والثاني: أن طلب الحوائج من الشباب أسهل من الشيوخ، قاله عطاء الخراساني، قال: ألا ترى إلى قول يوسف لإخوته ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ وقول يعقوب: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ﴾.

والثالث: لأن ذلك الحقَّ كان متعلقاً بالغير، وهو يوسف، فقال: سوف أسأل يوسف، فإن عفا استغفرتُ، قاله الشعبي.

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[يوسف: ٩٨] ثم قال يعقوب ليهوذا: كيف خلفت

يوسف؟ قال: ملك مصر، قال: ما أصنع بالملك، على أي دين تركته؟ قال: على دين الإسلام، قال: الآن تمت النعمة[1].

وقال علماء السير: كان يوسف قد بعث إلى أبيه بمئتي راحلة وجهاز، وسأله أن يأتيه بأهله وولده أجمعين، فتهيأ يعقوب وسار، فلما دنا يعقوب من مصر كلَّم يوسفُ الملكَ الذي فوقه في خروجه، فخرج يوسف والملك في أربع مئة ألف من الجند، وركب معهما أهل مصر يتلقون يعقوب، وأقبل يعقوب يمشي وهو يتوكأ على يهوذا، فنظر يعقوب إلى الخيل والناس فقال يعقوب: يا يهوذا هذا فرعون مصر؟ قال: هذا ابنك، فلما دنا كلٌّ واحدٍ منهما من صاحبه ترجَّلَ يوسف وذهب ليبدأه بالسلام، فمنعه يعقوب من ذلك لأنَّ القادم يسلِّم، فقال يعقوب: السلام عليك يا مُذْهِبَ الأحزان.

وقال سفيان الثوري: لما التقيا عانق كلٌّ واحدٍ منهما صاحبه، وبكى يعقوب ويوسف، فقال يوسف: يا أبتِ بكيتَ عليَّ حتى ذهب بصرك، ألم تعلم أن القيامة تجمعنا؟ قال: بلى، ولكنْ خفتُ أن يُسْلَبَ دينك فيُحال بيني وبينك [يوم القيامة].

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ﴾[يوسف: ٩٩] فإن قيل: فأمه كانت قد ماتت، فالجواب من وجهين:

أحدهما: أن الله أحيا أمه راحيل وأقامها من قبرها حتى سجدت له تحقيقاً لرؤياه، قاله الحسن.

والثاني: أن المراد خالته، لأنها أمه من حيث المعنى، قاله ابن عباس.

﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ أي: على السرير، أجلسهما معه ﴿وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا﴾ بأجمعهم، وليس المراد به وضعَ الجبهةِ لأنه حرام في جميع الشرائع لغير الله، وإنما أراد الانحناء والتواضع على طريق التحيّة والتسليم لا على وجه العبادة والتعظيم، فقال يوسف عند ذلك واقشعر جلده: ﴿هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا﴾.

فإن قيل: فلمَ لم يسجد له إخوته حين عرفوه؟ فالجواب: لأنه رأى الشمس والقمر والكواكب قد سجدوا له جملةً، فتأويل رؤياه يكون كذلك.

---

(١) انظر «عرائس المجالس» ١٤١.

﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ﴾ فإن قيل: فلمَ لم يقل: من الجبِّ وهو أوّل ما ابتلي به؟ فالجواب من وجوه:

أحدها: أنه استعمل الكرم لئلا يذكِّر إخوته ما فعلوا به فيكون تأنيباً لهم وقد قال: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ﴾.

والثاني: لأن نعم الله عليه في نجاته من السجن كانت أكثر عليه من نعمته في إنقاذه من الجب؛ لأن وقوعه في الجب كان من حسد إخوته، ووقوعه في السجن مكافأة من الله تعالى لزلَّته.

والثالث: أن السجن جبٌّ أيضاً، فحسَّنَ العبارة.

﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ﴾ لأن يعقوب وبنيه كانوا أهل بادية ﴿مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِيٓ﴾ أي: أفسد ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ﴾ أي: ذو لطف وصنع ﴿لِّمَا يَشَآءُ﴾ عليم عالم بدقائق الأمور وحقائقها ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾[يوسف: ١٠٠].

وقال علماء السير: ولما جمع الله شمل يوسف، وأقرَّ عينه وأتمَّ له رؤياه، وكان موسعاً عليه في دنياه، علم أن ذلك لا يدوم ولابدَّ من فراقه، فأراد نعيماً هو أفضل منه، فتاقت نفسه إلى الجنة، فتمنى الموت فدعا، ولم يتمنَّ نبيٌّ قبله ولا بعده الموت، فقال: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ﴾ يعني مُلْك مِصْر ﴿وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ يعني تعبير الرؤيا ﴿فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: يا خالقهما وبارئهما ﴿أَنتَ وَلِيِّۦ﴾ معيني ﴿فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا﴾ أي: اقبضني إليك ﴿وَأَلْحِقْنِي﴾[يوسف: ١٠١] بآبائي الصالحين أي الأنبياء. وإنما تمنَّى الموت لأنه خاف من تغير الحال، فتوفاه الله طيباً طاهراً.

وحكى الثعلبي عن يزيد الرَّقاشي عن أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ قال: «لما جَمَع اللهُ ليعقوبَ شَمْلَه، خَلا وَلَدُهُ نجيّاً فقال بعضُهم لبعضٍ: أليسَ قد عَلِمتُم ما صَنَعتُم وما لقيَ منكُم الشَّيخُ يعقوبُ ويوسفُ؟ قالوا: بلَى، قالوا: فإن عَفَوَا عنكُم فكيفَ لكُم بربِّكم؟ فاستَقَام أمرُهُم على أَنْ يأتُوا الشَّيخَ يعقوبَ، فأَتَوه فجلَسُوا بينَ يدَيْهِ ويوسفُ إلى جانبِهِ فقالوا له: يا أَبانا أَتيْنَاك في أمرٍ لم نأتِكَ في مثلهِ قطُّ، ونزل بنا أَمرٌ لم يَنزِلْ بنا مثلَه قطُّ، حتى حرَّكوهُ؛ لأنَّ الأنبياءَ أرحَمُ البريَّة، فقال: ما لكُم يا بَنِيَّ؟ قالوا: أَلَستَ قد عَلِمتَ ما كان منَّا إليكَ وإلى أخِينا؟ قال: بلى، قالوا: أَفَلَستُما قد عَفَوْتُما؟ قالا:

بلى، قالوا: فإنَّ عَفْوَكُما لا يُغنِي عنا شيئاً إنْ كانَ الله لم يَعفُ عنَّا، قال: فما تُريدُون؟ قالوا: نُريدُ أن تَدعُوَا الله [لنا]، فإذا جَاءَكَ الوحْيُ مِنَ اللهِ أَنَّه قد عَفَا عنَّا، طابَتْ قلُوبُنا وقَرَّت عُيونُنا، وإلَّا فلا قرَّتْ لنا عينٌ في الدُّنيا أبَدَاً، فقامَ الشَّيخ فاستقبَلَ القبلةَ، وقَامَ يوسُفُ خَلْفَه، وقامُوا خَلفَهُما أذلَّةً خاشِعينَ ودَعَا يعقوبُ ويوسفُ يؤمِّن، فلم يَزَلْ فيهم عشرينَ سنةً» قال صالح المرِّي: فلما كان رأس العشرين نزل جبريل على يعقوبَ فقال: إن الله قد أجاب دعاءَكَ فيهم، وقد عفا عمَّا صنعوا، وإنه قد اعتقد مواثيقهم من بعدك على النبوَّة[1].

وقال مجاهد: إنَّما تأخرت الإجابةُ عشرين سنة لأنه كلَّما تفاقم الذنب تعاظمت العقوبة.

وقال مقاتل: ركب يوسف يوماً في ثمان مئة ألف، وعلى رأسه ألفا لواء يتفقد أمورَ الرعية، وكان قد هجر زَلِيخا وعميت وانحنت فلبستْ جُبَّةَ صوفٍ وشدَّتْ وسطها بحبلٍ من ليف، ووقفت على قارعةِ الطريق فلما حاذاها نادته يا يوسف بالذي جعل العبيد ملوكاً بالطاعة، والملوكَ عبيداً بالمعصية كلِّمني، فوقف وبكى بكاءً شديداً لما سمع هذه الكلمات، ثم قال: من أنتِ؟ فقالت: زَلِيخا، قال: وأين شبابُكِ؟ قالت: ذهب به الذي أَذهَبَ ذُلَّكَ ومسكنتك، وأعطاك هذا المُلك، قال: فما تريدين؟ قالت: ثلاث حوائج، قال: سلي، قالت: أما الأولى فَيُردُّ عليَّ بصري وشبابي وأن تتزوَّجني، فسأل الله فردَّ عليها بصرها وشبابها وتزوَّجها، وإذا هي عذراء كما كانت بعد أن أتت عليها مئة وعشرون سنة، وأولدها أولاداً.

وذكر جدي في «التبصرة» بمعنى هذا فقال: كان يوسف يركب في كل شهر ركبة في ثمان مئة ألف ومعه ألف لواء وألفا سيف فيدور في عمله، وينصف المظلوم من الظالم، وكانت زليخا تلبس جبةَ صوف وتشدُّ وسطها بحبل من ليف وتناديه فلا يسمع، فنادته يوماً: يا أيها العزيز، سبحان مَنْ جعل العبيدَ ملوكاً بالطاعة، وذكَّرته، فسمعها

---

(١) الخبر في تفسير الثعلبي ٥/ ٢٦١، وعرائس المجالس ١٤٢ـ١٤٣، وتفسير الطبري ١٦/ ٢٨١ موقوف على أنس، قال ابن كثير في تفسيره ٢/ ٤٩٣: هذا الأثر موقوف عن أنس، ويزيد الرقاشي وصالح المري [الواردان في إسناد هذا الخبر] ضعيفان جداً.

فبكى وقال لفتاه: انطلق بهذه العجوز إلى الدار واقضِ لها كلَّ حاجة، فجاء إليها الغلام وقال: ما حاجتك يا عجوز؟ قالت: إنَّ حاجتي مُحَرَّمةٌ أنْ يقضيَها غير يوسف، فجاء يوسف فوقف عليها فقال: ما حاجتك؟ فذكرت الثلاث حوائج، فقضاها، وأولدها اثني عشر ولداً، ذكر هذا أبو الحسين ابن المنادي وغيره، وقد ذكره الثعلبي[١].

ذكر وفاة يعقوب

ذكر جدي أيضاً في «التبصرة» وقال: أقام يعقوب عند يوسف أربعة وعشرين سنة في أهنأ عيش، فلما حضرته الوفاة أوصى إلى يوسف أن يحمله إلى الشام، فيدفنه عند أبيه إسحاق، ففعل[٢].

وقال مقاتل: لما مات يعقوب حمله يوسف في تابوت من مصر إلى الشام، ومضى معه بنفسه، ووافق ذلك يوم مات عيص فدفنا في مكانٍ واحدٍ كما ولدا من بطن واحد، وكان عمرهما جميعاً سواء مئة وستاً وأربعين سنة.

وقد ذكره الثعلبي بإسناده إلى وهب بن منبه وقال: دخل يعقوب إلى مصر وولده وهم اثنان وسبعون إنساناً من رجل وامرأة وخرجوا منها مع موسى وهم ست مئة ألف وخمس مئة وبضع وسبعون رجلاً سوى الذرية والهرمَى والزَّمْنَى، وكانت الذرية ألف ألف ومئتي ألف سوى المقاتلة. وذكر أن يوسف حمل أباه يعقوب إلى الشام فدفنه عند آبائه، وعاد إلى مصر، وذكر موت عيصو قال: ودفن هو ويعقوب في قبرٍ واحد، وحكى ما حكينا[٣].

ذكر وفاة يوسف

قال علماء السير: توفي يوسف بعد أبيه بمدَّة، فدفن في النيل في الليل في صندوق من مرمر، ولما مات تشاحَّ الناسُ فيه كلٌّ يريدُ يدفنه في محلَّته لما يرجو من بركته، وهموا بالقتال، ثم أجمعوا على أن يدفنوه في النيل حيث يفترقُ الماءُ عليه ثم تصل

(١) «التبصرة» ١/ ١٨١، والمنتظم ١/ ٣١٥.

(٢) «التبصرة» ١/ ١٨٢، والمنتظم ١/ ٣١٩.

(٣) تفسير الثعلبي ٥/ ٢٦٠.

بركته إلى الجميع، ففعلوا، وبقي هناك إلى زمان موسى عليه السلام لما نذكر.

وقال مقاتل: ولما احتضر يوسف أوصى إلى أخيه يهوذا فقام بالأمور بعده.

واختلفوا في مدة غيبة يوسف عن أبيه على أقوال: أحدها: غاب ثمانين سنة، قاله الحسن البصري. والثاني: أربعين سنة، قاله ابن عباس. والثالث: اثنتين وعشرين سنة، وهو قول الكلبي. والرابع: سبعين. والخامس: سبعاً وسبعين، قاله عبد الله بن شَوذب.

وقال الحسن البصري: ألقي في الجبّ وهو ابن سبع عشرة سنة، وأقام في منزل العزيز ثلاث عشرة سنة وفي السجن، ثم استوزر بعد ثلاثين سنة، وعاش بعد لقاء أبيه اثنتين وعشرين سنة، ومات ابن مئة وعشرين سنة. وفي «التوراة» أنه عاش مئةً وعشر سنين[1].

وذكر جدي في «أعمار الأعيان»: أنه عاش مئة وعشرين سنة، قال: وكذا عاش موسى بن عمران عليه السلام، وحكيم بن حزام، وحُويطِب بن عبد العزى، وعديُّ بن حاتم الطائي، والنابغة الجعدي والحُطيئة الشاعران، وعبد خير صاحب علي رضي الله عنه، وحسان بن ثابت وأبوه وجدُّه، لما نذكر، وأبو عمرو سعد بن إياس الشيباني والمعْرور ابن سُوَيْد، وأبو عبد الله المغرِبيُّ الصُّوفي، وأستاذه علي بن رزين وخيرُ النَّساج وغيرهم، عاش كلُّ واحدٍ مئة وعشرين سنة[2].

انتهت ترجمة يوسف عليه السلام

(١) «سفر التكوين» (٥٠: ٢٢).

(٢) أعمار الأعيان ٩٥ـ٩٧.